كيفَ أرى الله..؟

الطبعة الأولى

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

الطبعة الثانية

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

الطبعة الثالثة

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

الطبعة الرابعة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
SHOROUK INTERNATIONAL, 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL 637 2743/4 TELEX SHOROK25779G

عَبد الوَدُود شَلبي

كيفَ أرى الله..؟

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدرِهِ . وَالأرضُ جَمِيعًا قَبضَتُهُ يَومَ القِيَامَةِ . وَالسَّموَاتُ مَطوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ . سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

صدق الله العظيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد ..

فالصراع بين الإيمان والكفر قديم منذ الأزل فوق هذه الأرض .

وهو صراع لا يكون إلا حين تختل الموازين العادلة في عقول البشر ، وحين تنطمس البصائر الهادية في قلوب الناس ..

« وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم ، إن هم لا يظنون »[1] .

إنه المنطق نفسه الذي يروج له المفلسون من رصيد الإيمان في هذا العصر الهاربون من تبعات الحكمة

---

(١) الجاثية : الآية : ٢٤ .

والعقل ، الشاردون في متاهات الجحود والشك ، القانطون من رحمة الله في السموات والأرض ...

فليس جديداً كما قلت هذا الصراع ولا هذا النزاع ، ولكن الجديد هو أسلوب الجدل والحوار والاقناع وهو جدل وحوار لا يقوم أصلاً على بينة ، ولا ينهض أساساً لدليل أو حجة .

* * *

إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره وقدراً يحركه ، وناموساً ينسقه .

هذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها ، وينظم حركاتها جميعاً ، فلا تصطدم ، ولا تختل ، ولا تتعارض ، ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة إلى ما شاء الله ..

كما أن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التي تدبره ، والقدر الذي يحركه ، والناموس الذي ينسقه . بحيث لا يخطر له في لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة ، أو يخالف هذا الناموس .

وحين تسلم فطرة الإنسان ويطلق لملكاته عنان النظر في هذا الكون فانه لا يجد فكاكاً من الاعتقاد بالخالق الأعظم جل شأنه ، ولا فراراً من الحقيقة التي

يشع نورها في قلبه ، ولا مبرراً ـ أو شبه مبرر ـ يدعوه للشك في هذا الوجود والحكمة من خلقة . وكما يقول أحد العلماء ..

إن عين أية نملة صغيرة كفيلة وحدها بفقء عين أي ملحد ... !

وهذا الكتاب ليس إلا صيحة مؤمنة إلى الله ، وحجة قائمة على أدعياء العلم والمعرفة والحياة ..

إنه كتاب اليقين للتائهين في دروب الشك . ونهاية المطاف في رحلة طويلة بحثاً عن الحق ، وكتاب الإيمان للظامئين إلى الهداية والنور ..

الباحثون عن الحقيقة ؟

سوف يأتي ذلك اليوم الذي يعرف فيه الناس أن المادة وحدها لا تجلب سعادة وأنها قليلة النفع في حياة البشر . وأن أعظم الكشوفات سيتم في ذلك اليوم الذي يتجه فيه كل العلماء إلى الله والصلاة ..

تشارلس ستايميتز

هذا الكون الذي نعيش فيه ...
من يكشف سره ؟ من يسبر غوره ؟

إن العالم يتقدم بسرعة فائقة مذهلة .. ولكن إلى أين ؟ لا أحد يدري كما يقول « أينشتاين » .. كل ما نراه يؤكد اننا نجري إلى هاوية سحيقة . ولم ؟ لأن عنصر الايمان كما يقرر هذا العالم الفيلسوف بدأ يضمر في نفوسنا ويذوي .. ولأن قلة من الأدعياء لبسوا مسوح العلم فوجهوا شراعه الهادي إلى بحر متلاطم من الظلمات والشك . وافتعلوا بأباطيلهم الشائهة تناقضاً بين الدين والعلم ..

فهل الأمر كذلك .. ؟

لنقرأ أولاً ما نشره الدكتور « ديتريت » في بحث عالج فيه هذه الدعوى باستفتاء قام به بين (٢٩٠) عالماً ، في الفلك والكيمياء والهندسة والطب .

وكان السؤال الأول الموجه إلى هذه النخبة من العلماء هو :

هل تؤمن بوجود إله خالق لهذا الكون ؟ وكانت نتيجة هذا الاستفتاء مرتبة على النحو التالي :

٢٤٢ من هؤلاء أعلنوا إيمانهم الكامل بالله ..
٢٨ لم يصلوا إلى عقيدة ..
٢٠ لا يهتمون بالعقائد الدينية أو التفكير فيها ..

وقد تتبعت في العام الماضي هذا الاستفتاء الذي أعلنت عنه صحيفة انجليزية (نيوز اف ذا وورلد) وكان موضوع هذا الاستفتاء عن الله ، وعن الإيمان به ، وعن كيفية تصوره . وكانت الأسئلة موجهة إلى قطاعات مختلفة من الشعب البريطاني ، وبخاصة إلى الشباب ورجال الفكر ، وكانت النتيجة التي توصلت إليها الصحيفة ان الغالبية العظمى من المشتركين في هذا الاستفتاء يؤمنون بالله الخالق ، وأن المشكلة الكبرى هي في تصوره سبحانه ، وفي الطريقة المثلى التي يعبد بها فوق هذه الأرض ..

وعلى عكس ما كانت تتوقع الصحيفة .. فان كثيراً من العلماء ورجال الفكر أعلنوا رأيهم بصراحة في سقوط الفلسفة المادية ، وفي انهيار أركانها القائمة على الوهم والقصور والعجز . وكما يقول العلامة كاميل فلامريون :

نحن نفكر ولكن ما هو الفكر ؟ لا يستطيع أحد أن يجيب على هذا السؤال .. ونحن نمشي ولكن ما هو العمل العضلي ؟ لا أحد يعرف ذلك .. إن إرادتي قوة غير مادية .. وإن خصائص نفسي غير مادية

أيضاً . ومع دلك فإذا أردت أن أحرك ذراعي أرى أن إرادتي تحرك مادتي .. فكيف يحدث ذلك .. ؟ وما هو الوسيط الذي يتوسط للقوى العقلية في إنتاج نتيجة مادية ؟ لا يوجد من يستطيع أن يجيب على هذا أيضاً . بل قل لي : كيف ينقل العصب البصري صور الأشياء إلى العقل ؟ قل لي : كيف يدرك العقل هذا ؟ وأين مستقره ؟ وما هي طبيعة العمل العقلي ؟ قولوا أيها الملحدون .. ولكن . كفى . كفى . فأني أستطيع أن أسألكم عشر سنين ولا يستطيع أكبر رأس فيكم أن يجيب على أحقر سؤال من أسئلتي.... ! ! !

يقول العلامة الهندي الدكتور عناية الله المشرقي :

كنت أدرس في كمبردج . وذات يوم كانت السماء تمطر بغزارة . وخرجت من بيتي لقضاء حاجة فإذا بي أرى الفلكي المشهور « السير جيمس جينز » ذاهباً إلى الكنيسة والانجيل والشمسية تحت ابطه .. فدنوت منه وسلمت عليه . فلم يرد علي .. فسلمت عليه مرة أخرى فسألني : ماذا تريد مني ؟ فقلت له : أريد سؤالك عن شيئين :

الأول : لماذا لا تفتح مظلتك رغم نزول المطر ؟ فابتسم السير جينز وفتح المظلة .

وأما السؤال التاني : فلماذا تذهب إلى الكنيسه وأنت عالم كبير ذائع الصيت . ؟

وهنا توقف العالم الكبير لحظة . ثم قال لي : نلتقي معاً في هذا المساء لنناقش هذه القضية .. وذهبت إليه في الموعد المحدد . فسألني

على الفور ماذا كان سؤالك لي هذا الصباح ؟ ودون أن ينتظر مني جواباً بدأ يتكلم عن الكون . ونظامه الدقيق المدهش وعن الكواكب في السماء ، ونظامها العجيب المحكم ... وعن المجرات وأبعادها اللامتناهية وطوفان أنوارها الباهرة .. و ... ونظرت إلى العالم الكبير فإذا به يبكي .. ويداه ترتعدان من خشية الله . ثم توقف فجأة . وبدأ يقول :

عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله . يبدأ كياني يهتز من الجلال الإلهي . وعندما أركع أمام الله وأقول : إنك لعظيم أحس بسعادة تفوق كل سعادة ..

فقلت له : لقد تأثرت كثيراً بما قلت : فهل تسمح لي بقراءة آية من آيات كتابي المقدس ؟

فأجاب المستر جينز : بكل سرور تفضل ..

فقرأت عليه قول الله سبحانه ..

« ألم ترأن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض . وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وما كدت أتوقف حتى صرخ السير جينز قائلاً :

ماذا قلت ؟

إنما يخشى الله من عباده العلماء . مدهش .. غريب .. عجيب

جداً ... من أنبأ محمداً بهذا ؟ هل هذه الآية في القرآن حقاً ؟ لو كان كما تقول .. فاكتب شهادة عني أن القرآن وحي من عند الله .. لقد كان محمد أمياً .. ولا يمكن أن يكشف هذا السر بنفسه .. ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر .. مدهش وغريب وعجيب جداً .. ! !

وحينما فرغ المهندس « ايفل » من بناء برجه الشامخ في قلب باريس زاره لأول مرة العالم الانكليزي الكبير « أديسون » وكتب في السجل الذهبي لبرج ايفل هذه الكلمات :

إلى السيد « ايفل » من « أديسون » الذي يكن له أعمق احترام وأكبر اعجاب للمهندسين جميعاً وعلى رأسهم المهندس الأعظم الله ...

وهذا واحد من علماء الأحياء ينظر إلى ما في الوجود من كائنات فلا يملك سوى أن يقول : ان عين اية فراشة وجناحها . لهما الكفيلان وحدهما بسحق أي ملحد ..

وينظر عالم طبيعي إلى ما في الكون من أعاجيب .. فيجد العقل البشري عاجزاً عن تفسير أصغر سر من أسرار الكون . فيهتف قائلاً :

حاول أن تفسر لي أية ذرة صغيرة من رمال الصحراء وأنا أفسر لك الله ...

وهذا « فابر » أحد العلماء يكتب في مذكراته قائلاً :

ان ثمة عقلاً لا متناهياً يحكم العالم . وكلما أنعمت النظر استطعت أن أبصر ذلك العقل الذي يشع خلف أسرار الأشياء .. انني أعلم أن البعض قد يجد في هذا القول مدعاة للسخرية ولكن هذا لا يعنيني في

قليل أو كثير .. انكم قد تستطيعون أن تنتزعوا جلدي من جسدي . ولكنكم لن تستطيعوا أن تنتزعوا من عقلي ايماني بالله .. استغفر الله .. فأني لا أومن بالله فقط .. بل أراه ....

يقول الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار :

عرفت تولستوي منذ ثلاثين سنة . وقرأت له قصصاً مترجمة ، وأعجبتني أقصوصة له قرأتها في الأدب البنغالي .. وموجز القصة :

أن ملكاً عادلاً محبوباً من رعيته لم يرزق بولد . ولكن ذلك لم يهمه ، فقد كان له في حبه لأبناء شعبه غنىً عن حب الولد . وكان أكبر من في مملكته علماً وعقلاً وفضلاً وخلقاً ، وذات يوم طاف به الشيطان فأخذ يفكر في الله تفكيراً ينزع إلى الشك والألحاد . وجمع أكبر مفكري مملكته وطلب إليهم أن يروه الله ، وأمهلهم ثلاثة أيام . ومضت المدة . واجتمعوا لديه وكلهم مستعد للموت . وكان معهم راع قال للملك : أنا أستطيع أن أريك الله .

فقال له : هيا أرني .. فطلب إليه أن يحدق في الشمس تحديقاً ، فعجز الملك وخاف على عينيه . فقال له الراعي : إذا عجزت أن تحدق في الشمس وهي من مخلوقاته وليست أكبرها ، فكيف تريد أن ترى الله بعينيك هاتين الضعيفتين .. ؟

وشعر الملك بهزيمته عندما صفقت الجماهير للراعي ، ولكنه استجمع قواه حين استمع للراعي وهو يسأله عن اسم ابنه .. فقال الملك وهو يشعر بزهو النصر الذي خاله في صفه :

يا لرعونتك كيف اسمي (عدما) لا وجود له ؟

وهنا قال الراعي : صدقت أيها الملك ، فهل يسيغ عقلك أن يصطلح الناس على تسمية الخالق (الله) وهو لا وجود له ؟ إذا استحال عليك أنت أن تسمي ابناً لم ترزقه ، فكيف بملايين الملايين تسمى من لا وجود له (الله) ؟ وزاد تصفيق الناس للراعي واشتعل غيظ الملك وسأله : من كان قبل الله ؟

وأجابه الراعي : أيعرف مولاي العد ؟

فلما رَدَّ الملك بالإيجاب طلب إليه الراعي أن يعد ، فبدأ الملك يعد .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. ولكن الراعي فاجأه بقوله : عد يا مولاي قبل الواحد . فغضب الملك وقال : ويلك .. أيوجد شيء قبل الواحد ؟ وهنا صاح الراعي : كذلك الله واحد ليس قبله شيء ..

ثم سأله الملك عن عمل الله .. فقال له الراعي : إن هذا الجواب يحتاج إلى أن تبادل ملابسنا .. أنت تلبس ثيابي ، وأنا أرتدي ملابسك . وبعد ذلك أجيبك .

وتبادلا الملابس ، فغدا الراعي ملكاً وقال : عمل الله عز وجل يعز من يشاء ويذل من يشاء فهاأنذا الراعي الحقير صرت ملكاً ، وأنت الذي كنت قبل دقائق ملكاً صرت راعياً فقيراً .. الأعزاز ، والأذلال والابقاء ، والافناء عمل الله ..

* * *

وقد روي عن الامام أبي حنيفة ..

إن ملحداً من علماء الروم ، ناظر علماء الاسلام فأفحمهم ، إلا حماداً شيخ أبي حنيفة . ومع هذا لم يظهر حماد على الدهري .. وفي اليوم الثاني اجتمع الناس بالجامع ، وصعد الملحد المنبر وطلب المناظرة ، وأعلن تحديه لعلماء الاسلام . فظهر أبو حنيفة من بين الصفوف حتى إذا كان على مقربة من المنبر قال : ها أنذا جئت أناظرك ..

ولكن عين الملحد تقحمت الامام الأعظم فاستصغر شأنه لحداثة سنه . ولكن الإمام تحداه إذ قال : هات ما عندك ..

فعجب الدهري من جرأة أبي حنيفة وقال له : أيصدق العقل أن يوجد أول ليس قبله شيء ؟

فأجابه الامام : نعم ، وأردف قائلاً : أتعرف العدد ؟

قال الدهري : نعم

قال أبو حنيفة : فما قبل الواحد ؟

قال الدهري : هو الأول ، ليس قبله شيء ..

فقال ابو حنيفة : كذلك الله سبحانه وتعالى ..

قال الدهري : في أي مكان هو كل موجود لا بد له من مكان.

فسأله الامام ، إن كان يعرف اللبن فلما أجابه أنه يعرفه سأله : أفي هذا اللبن زبد ؟

قال الدهري : نعم

قال أبو حنيفة : في أي مكان منه ؟

قال الدهري : لا يختص بمكان دون مكان ..

قال الامام : كذلك الله جل شأنه
قال الدهري : إلى أي جهة يتجه ؟ وكل شيء لا يخلو من الجهات .
قال الامام : إذا أشعلت السراج ، فإلى أي جهة يتجه نوره ؟
قال الدهري : تستوي لنوره الجهات ..
قال الامام : كذلك الله خالق السماوات والأرض
قال الدهري : وماذا يعمل هو ؟
قال الامام : سألت هذه الأسئلة وأنت على المنبر وأجبتك عنها وأنا على الأرض ، والآن .. انزل لأصعد أنا المنبر ..

فنزل الدهري وصعد الإمام وقال سألتني عن عمل الله . عمله جل شأنه : إذا كان على المنبر كافر مثلك أنزله ، وإذا كان على الأرض مؤمن مثلي رفعه .. وكل يوم هو في شأن ....

* * *

لقد سئل احد العارفين عن الدليل على الله . فقال : الله .

فقيل له : فما العقل ؟ فقال عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله ..

ولو أن إنسان هذا العصر أدرك حقيقة نفسه ، وحدود عقله لاختفت من الوجود همهمات الالحاد والزيغ ، وعاش الناس في طمأنينة بالغة من الهدوء وراحة النفس ..

لقد درست ما يسمى بالفلسفة . في كلية أصول الدين بالأزهر الشريف . وهي كلية تهدف رسالتها إلى تركيز قواعد الإيمان واليقين

في النفس .. كانت الفلسفة تمثل جانباً كبيراً من مناهج الدراسة في هذه الكلية . الفلسفة بكل مدارسها واتجاهاتها و بخاصة الجانب الالهي منها ...

ما هذا الذي يقوله سقراط ، وأرسطو ، وأفلاطون ؟ ماذا يقول نيتشه ، وديكارت وكانت ؟ وماذا يدعي الآخرون عن صاحب العظمة والجلال والكمال ؟

أقوال يأخذ بعضها بخناق بعض ، ودعاوى تفتقد حرارة الإيمان وصدق اليقين ، ودليل ينقصه الدليل ليحمل اسم الدليل ..

كنت متمرداً على كل هذه الثرثرة واللغو .. وكنت أكتم في نفسي إحساساً بأن هذا كله هراء وعجز .. إن الله سبحانه فوق كل تصور ووصف ، وعقل الإنسان مهما بلغ من المعرفة فهو عقل محدود في عالم محدود .. وحين يتجاوز هذا العقل حده يضل ويزيغ فلا يصدر عنه إلا الضلال والزيغ ..

يالله . ! ! !

سامحنا على هذا الغرور والادعاء .. فما كتب هذا الكتاب ليدلل على وجودك الحق .

فمتى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟

ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟

إذا ما اتجه الفكر في السموات حيث انتشرت النجوم في الليل .. وإذا ما كل البصر فيما لا نهاية له من الآفاق المطلمة .. وإذا ما خشعت

النفس خشعتها من رهبة السكون الشامل .. فانك تشرف بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق ... وتسمع صوتك في ذلك السكون .. وتلمس بعظمتك النفس الخاشعة المطمئنة ... حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها باسمة مشرقة . ويتحول السكون إلى نبرات شجية . تنبعث من كل صوت . وحينئذ تتغنى النفس الخاشعة لتقول :

أنت .. أنت الله ... ! ! !

فيا عجباً كيف يعصي الإله أم كيف يجحده الجاحد ؟

وفي كل شيء له آية .. تدل على أنه الواحد ..

* * *

لكن لماذا كان هذا الكتاب ؟

إن العالم الإسلامي يتعرض لضغوط مختلفة . ضغوط تهدف إلى اقتلاع جذور العقيدة ضغوط تتمثل في هذا الطوفان الكاسح من الكتب والمذاهب الفاسدة ، في هذا الأعصار القاصف لمعالم الحق والخير والهداية .. في هذا التدبير الغاشم ضد ما بقي فينا من عناصر الحياة والقوة . وانها لخيانة أكبر خيانة ، أن يسكت صاحب قلم يستطيع أن يكتب ، أو صاحب رأي يستطيع أن ينطق ، أو صاحب إيمان في قلبه ذرة من الحق والغيرة والمنطق ..

وإذا كان منطق هذا العصر هو العلم . وكانت التجربة هي الدليل في الحكم . فقد اعتمدت في عرض هذا الكتاب هذه الطريقة ،

إنه حصيلة تجارب مختلفة للراغبين في الحق والحقيقة ....

وبعد ..

فالإلحاد كما يقول العلامة « كريسي موريسون » : نوع من الأنانية حيث يجلس الإنسان على كرسي الله .. لسوف تقضي هذه الحضارة بدون العقيدة والدين . ولسوف يتحول النظام إلى فوضى .. سوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتمسك بالقيم . وسوف يتفشى الشر في كل مكان في الأرض .. إنها لحاجة ملحة أن نقوي من صلتنا وعلاقتنا بالله .....

وكما يقول رينان :

من الممكن أن يتلاشى كل شيء نحبه، ومن الممكن أن تتلاشى الحضارة والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي الدين ويتلاشى ، بل سيبقى أبد الأباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي وفساده ...

حقائق وأوهام

إن الدين والعلوم الطبيعية يقاتلان معاً في معركة واحدة ضد الشك والجحود والخرافة . ولقد كانت الصيحة الواحدة في هذه الحرب وستكون دائماً إلى الله ...

ماكس بلانك

يقول الفيلسوف الألماني كانت :

إيتوني بالمادة .. وسوف أعلمكم كيف يخلق الكون منها ..

ويقول هيجل :

إنني أستطيع خلق الإنسان لو توفر لي الماء والمواد الكيماوية والوقت .

ويقول نيتشه في نوبة غرور وصرع :

لقد مات الإله الآن ..

لماذا كل هذا الجحود والهذيان .. ؟ لأنهم رأوا ـ أو هكذا تصوروا وادعوا ـ أن الكون مادي من أوله وآخره وأن كل حركات الكون ومظاهره ليست إلا عملاً مادياً أعمى ، وأن كل الأشياء التي كانوا يفترضون وراءها قوي خفية عظمى قد اكتشفوا الآن وجود قوى معروفة وراءها تعمل بمقتضاها وموجبها فإذا كان قوس قزح هو انعكاس الأشعة الشمسية على المطر . فالباطل كلياً أن تقول إن قوس قزح آية من آيات الله في السماء .

أو كما يقول هكسلي :

إذا كانت الوقائع نتيجة لعلل طبيعية فهي بالطبع ليست نتيجة لعلل غير طبيعية. أو بعبارة أوضح ليست من صنع إله خالق للكون والطبيعة .

أين يكمن الضعف في هذا الكلام كما يقول العلامة المسلم وحيد خان : إننا نستطيع فهم هذا الضعف في المثال البسيط التالي .

قد يشاهد أحد الرجال قاطرة تجري على قضبان الحديد فيتبادر إلى ذهنه سؤال : كيف تجري هذه العجلات الثقيلة ؟ وبعد قليل من المشاهدة يصل الرجل إلى آلات وتروس القاطرة فيرى أن العجلات الثقيلة تتحرك بتحرك التروس والآلات . أفبعد هذا الاكتشاف يحق لهذا الرجل أن يزعم أن آلات القاطرة وحدها هي السبب في تحرك عجلاتها . من الواضح أن الأمر ليس كذلك بهذه البساطة ، لأنه يجب أن نعترف بالسائق الذي يدير الماكينات ، ثم المهندس الذي صنع تلك الماكينات وأوجد القاطرة . فلا وجود في الحقيقة للقاطرة ، ولا يمكن إحداث الحركة في آلاتها بدون عمل المهندس والسائق . فالماكينات الداخلية ليست هي الختام في قصة القاطرة بل ان الحقيقة النهائية هي (العقل) الذي أوجد تلك الماكينات ، ثم أدارها وحركها وفق إرادة مرسومة .

لقد أصاب عالم طبيعي حين قال : (ان الطبيعة لا تفسر الكون ، وإنما هي نفسها في حاجة إلى تفسير) .

Nature does not explain, she is in need of explanation.

وذلك لأن الطبيعة مجرد حقيقة من حقائق الكون ، وليست تفسيراً له : ولنفهم هذا من مثال آخر :

إن الكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيضة القوية ، ويخرج منها بعد ما تنكسر هذه القشرة . لقد كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه ، ولكنا شاهدنا اليوم ـ بالمنظار ـ انه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت يستعمله في تكسير قشرة البيضة لينطلق خارجاً منها ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة .

هذه المشاهدة كما يزعم المعارضون أبطلت الفكرة القديمة القائلة بأن الإله يخرج الكتكوت من البيضة إذ قد رأينا يقيناً أن قانون (الواحد والعشرين يوماً) يحدث هذه العملية . والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا إلا على حلقات جديدة للحادث ولا تكشف عن سببه الحقيقي ، فقد تغير الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن (تكسر القشرة) بل عن (كيف يظهر القرن) ؟ إن السبب الحقيقي سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن ، العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة . فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير إلا أنه (مشاهدة للواقع على نطاق أوسع) ، ولكنه ليس تفسيراً له .

إن الإكتشاف الذي اعتبره معارضو الدين بديلاً للاله يمكننا أن

نفسره بسهولة بأنه (أسلوب عمل الطبيعة) . ولكننا نستطيع أن نقول بكل قوة :

إن الله يجري إرادته في الكون بواسطة هذه القوانين التي اكتشفت علومنا الحديثة بعض أجزائها فقط حتى الآن . لنفترض أن رجال الدين يعتقدون أن الله يأتي بالمد والجزر في البحار .. ثم يأتي عالم من علمائنا الجدد ويقول لنا :

إن المد والجزر له سببان هما قوة الجاذبية في القمر ، والتكوين الجغرافي أي الوضع الجغرافي لأجزاء الأرض البرية والبحرية

إننا سنستقبل هذا الكشف العلمي بكل سرور فليس هناك من داع يقتضي رفض هذا الكشف لأنه لا يؤثر إطلاقاً على صواب عقيدتنا . إننا نسلم بأن حدوث المد والجزر يقتضي قوة الجاذبية ويقتضي وضعاً حغرافياً معيناً لأجزاء الأرض . ولكن ما هي قوة الجاذبية ، وما هو الوضع الجغرافي الأرضي ؟ إنهما ـ أيضاً ـ من خلق الله ، والله يستخدم هذه الوسائل لتنفيذ إرادته فعلاً ، ولولا استخدامه لهذه الوسائل والأسباب المحددة لتنفيذ مشيئته لحلت الفوضى في الكون ولانعدم النظام . فالله سبحانه وتعالى لا يزال هو السبب الأول والحقيقي لطوفان البحار[1].. وليست المادة ولا المصادفة العمياء ..

فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها ...

---

(١) من كتاب الدين والعلم .

فيكون من ذلك تتابع الليل والنهار ...
وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام...

فيكون في ذلك تتابع الفصول الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة .

ويحيط بالأرض علاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير يزيد على خمسمائة ميل ، ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول الشهب القاتلة التي تنقض علينا بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية ..

والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يكون مطراً يحي الأرض بعد موتها .

ويمتاز الماء بأربع خواص هامة تعمل على صيانة الحياة في المحيطات والبحيرات والأنهار وبخاصة عندما يكون الشتاء قارصاً وطويلاً فالماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة ، وتبلغ كثافة الماء أقصاها في درجة أربعة مئوية ، والثلج أقل كثافة من الماء مما يجعل الجليد المتكون في البحيرات والأنهار يطفو على سطح الماء لخفته النسبية فيهيء بذلك الفرصة لاستمرار حياة الكائنات التي تعيش في الماء في المناطق الباردة . وعندما يتجمد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة حياة الأحياء

التي تعيش في البحار ..

أما الأرض اليابسة فهي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الأرضية . فالتربة تحتوي العناصر التي يمتصها النبات ويمثلها ويحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام التي يفتقر إليها الحيوان .

ويوجد كثير من المعادن قريباً من سطح الأرض مما هيأ السبيل لقيام الحضارة الراهنة ونشأة كثير من الصناعات والفنون .. وكثيراً ما يسخر البعض من صغر حجم الأرض بالنسبة إلى ما حولها من فراغ لا نهائي .

ولو علم هذا البعض أن الأرض لو كانت صغيرة كالقمر أو حتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت .

ولو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه ، وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي ، وزاد الضغط الجوي من كيلو جرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع ويؤثر ذلك أبلغ الأثر في الحياة على سطح الأرض فتتسع مساحة المناطق الباردة اتساعاً كبيراً . وتنقص مساحة الأرض الصالحة للسكنى نقصاً ذريعاً . وبذلك تعيش الجماعات الإنسانية منفصلة أو في أماكن متنائية فتزداد العزلة بينها ويتعذر السفر والاتصال بل قد يصير ضرباً من الخيال .

ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها مائة وخمسين ضعفاً ، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوي إلى أربعة أميال ، ولأصبح تبخر الماء مستحيلاً ، ولارتفع الضغط الجوي إلى ما يزيد على مائة وخمسين كيلو جراماً على السنتيمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذي يزن رطلاً واحداً إلى مائة وخمسين رطلاً ، ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار في حجم السنجاب ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات .

ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية ، وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول ، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض ..

ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال ، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ، ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة .

فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم وإرادة عليا فكيف نشأت ؟

يقولون : إنها الصدفة .. الصدفة هي التي صنعت ، والصدفة هي التي أوجدت والصدفة هي التي جات بي وبك من العدم إلى الوجود فخلقت وأبدعت .

والآن تعال معي ثانية نقابل هذه (الصدفة) التي لها كل هذا السلطان والقوة ..

لنفرض أن معك كيساً يحوي مائة قطعة رخام تسع وتسعون منها سوداء وواحدة بيضاء والآن هز الكيس وخذ منه واحدة . إن فرصة سحب القطعة البيضاء هي بنسبة واحد إلى مائة والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس وابدأ من جديد . إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة . غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف .

والآن جرب مرة ثالثة . إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متوالية هي بنسبة واحد في المليون ثم جرب مرة أخرى ومرتين تصبح الأرقام فلكية .. يعني لا نهاية لها ..

هل تريد مثلاً آخر .

خذ عشرة بنسات أو قروش كلاً منها على حدة . وضع عليها أرقاماً مسلسلة من ١ ــ ١٠ ثم ضعها في جيبك وهزها هزاً شديداً ، ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من ١ إلى ١٠ ... إن فرصة سحب البنس أو القرش رقم واحد هي بنسبة ١ إلى ١٠ وفرصة سحب رقم ١ ورقم ٢ متتابعين هي بنسبة ١ إلى ١٠٠.

وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام١، ٢ ، ٣، متتالية هي بنسبة ١ إلى ١٠٠٠ وفرصة سحب ١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٤ ــ متوالية هي بنسبة ١ إلى ١٠،٠٠٠ وهكـذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها

من ١ إلى ١٠ هي بنسبة ١ ـ ١٠ ملايين . . . فكر وتأمل . . . !

هل تصدق أن رجلاً أعمى يمسك بيده عشر إبر ، فيمسك إحداها بيده اليسرى ثم يرفعها إلى أعلى ويقذف بالابر الباقية في الهواء بحيث يدخل رأس الابرة الأولى في ثقب الابرة التي في يده اليسرى .. ثم يكرر عملية قذف الابر في الهواء أيضاً ليدخل رأس كل ابرة في ثقب الابرة الأخرى حتى يكتمل تماسك الابر العشر هكذا ؟

يقول مصطفى محمود :

لن تنتهي الأمثلة في علم النبات والحيوان والطب والفلك . والقول بأن كل هذا الاتساق والنظام حدث صدفة واتفاقاً هو السذاجة بعينها . كقولنا ان انفجاراً حدث في مطبعة أدى إلى أن تصطف الحروف على هيئة قاموس محكم .

والكيمائي المغرور الذي قال : إيتوني بالهواء والماء والطين وظروف نشأة الحياة الأولى وأنا أصنع لكم إنساناً .. هذا الكيمائي قد قرر احتياجه سلفاً لكل العناصر والظروف التي يوجد بها الكائن قبل أن يوجد .

ولو أتيناه بكل هذه العناصر وكل تلك الظروف .. ولو أنه ـ فرضاً وجدلاً ـ استطاع أن يهيء هذه الظروف لوجود إنسان فإنه لن يقول صنعته الصدفة . بل انه سوف يقول : صنعته أنا .. ! ! !

أفكلما أعيتنا الحيلة في فهم شيء قلنا إنه حدث صدفة هل هذا معقول ؟

أي صدفة هذه التي تستدل بها الطيور والأسماك المهاجرة على أوطانها على بعد آلاف الأميال وعبر الصحاري والبحار ؟ أي صدفة هذه التي تجعل الكتكوت يكسر البيضة عند أضعف نقطة فيها ليخرج ؟

أي صدفة هذه التي تجعل (عباد الشمس) يدرك أن حياته مرتبطة بالشمس فيدور حولها ويتجه إليها ؟ هل الصدفة هي التي تصنع لأشجار الصحاري بذوراً مجنحة تطير بها عبر الصحاري إلى حيث تجد ظروف إنبات وري أمطار أحسن ؟

والنحلة التي أقامت مجتمعاً ونظاماً ، ومارست العمارة وفنون الكيمياء المعقدة التي تحول بها الرحيق إلى عسل وشمع ؟ والحشرات الملونة التي اكتشفت أصول فن المكياج والتنكر والتخفي ، وحشرة الترميت التي اكتشفت القوانين الأولية لتكييف الهواء فأقامت بيوتاً مكيفة

هل كل هذا جاء صدفة ....

« أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض؟ بل لا يوقنون » . . . صدق الله العظيم . .

صوتُ العقل

أن تكون عاقلاً فذلك شيء جميل . ولكن أعقل العقلاء من يقوده عقله إلى الحقيقة التي بدونها تكون الحياة عبثاً وجنوناً وتعاسة

(حكيم)

ـ قال سقراط : مخاطباً أريستوديم ..

ـ قل لي يا (أريستوديم) .. أترى أنه يوجد رجال يستحقون منك الاعجاب في مهارتهم وحسن أعمالهم ؟

ـ قال أريستوديم : بلى

ـ قال سقراط : ألا تخبرنا عن أسمائهم ؟

ـ قال الرجل : إني في نوع من الشعر أعجب (بهومير) ، وفي الحماسة يطربني (ميلاتييد) ، وفي المراثي يشجيني (سفوكل) ..

ـ قال سقراط : قل لي .. أيهما أحق من اعجابك بالقسط الأكبر ؟ الذين يعملون صوراً لا شعور بها ولا حراك .. أم الذين يخلقون الكائنات الحية المتمتعة بالإدراك ؟

ـ قال الرجل : وحق الاله ان الاحق بالقسط الأكبر من الاعجاب هم الذين يخلقون الكائنات الحية المتمتعة بالحياة .. إذا لم تكن تلك الكائنات نتيجة الصدفة .. بل نتيجة حكمة وإرادة .

ـ قال سقراط : أرأيت لو عرضت عليك مصنوعات مختلفة ، منها

ما هو خفي المنفعة ، ومنها ما له منفعة ظاهرة ، وحكمة في الوجود باهرة . فأيهما أولى بأن تظنه من نتائج الصدفة والاتفاق ، أو من نتائج العقل والحكمة ؟

ـ قال الرجل : تقضي علينا بداهة العقل أن نقول : إن الذي له حكمة في الوجود ظاهرة ، ومنفعة في نظام العالم بيِّنة ، هو من فعل العقل والحكمة ؟

ـ قال سقراط :

ألا ترى معنا أن الذي خلق الإنسان ، وسواه . قد أعطاه كل عضو من أعضائه لمنفعة خاصة ، وفائدة بينة ، ومنحه من الأجزاء والأجهزة ، بما يحس ويشعر بواسطته.فمتعه بعينين ليرى بهما المحسوسات وبأذنين ليسمع بهما الأصوات ..

وبماذا كانت تفيد زكيات الروائح لو لم يكن لنا أنوف تدركها وتحس بها ؟ أترى أننا كنا نتمتع بادراك الحلو والمر من الطعام . والالتذاذ بمحبوبات الفم ، لو لم يكن لنا ذلك اللسان الذي وضع لتمييزها والحس بها ؟ ألا ترى من دلائل التدبير والحكمة أن تمتع العين وهي ضعيفة بجفون تفتح وتغلق عند الحاجة ، وتنطبق عند النوم ؟ وأن توهب تلك العين غربالاً من أهداب ليقيها فعل الرياح الثائرة ؟ وأن تمنح لها تلك الحواجب لتمنع عنها غوائل العرق المتساقط من الرأس ؟ وأن تصنع الآذان على صورة لا تكل من سماع الأصوات ، ولا تعيا من الحس بها ؟ أترى نفسك بازاء كل هذه الأعمال التي تدل على تدبير وحكمة . لا تزال متردداً بين عزوها إلى الصدفة والاتفاق ، وبين

اسنادها للحكمة والعدل ؟

ـ قال الرجل : لا ، والاله فان أقل نظر في هذه الكائنات الحية يدلنا على أن هناك (ذات) عالم رحيم ، خلقها وعدلها .

ـ قال سقراط : زد على هذا ، الميل المودع في الطبائع للتكاثر ، والرحمة المودعة في قلوب الأمهات لتغذية صغارها ، وإعالتهم ، وما غرس في نفوس تلك الصغار من غرائز حب الحياة والهرب من الموت .

ـ قال الرجل : لا شك أن كل هذا يدل على أنه اختراع موجد حكيم ، أعد الأرض وهيأها لسكنى الحيوانات .

ـ قال سقراط : أتظن بعد هذا أنك وحدك الكائن المتمتع بحكمة وعلم ، وأنه لا يوجد غيرك في هذا الوجود كله عاقل ولا حكيم ؟ .. أتظن أنك وحدك استلبت من هذا الوجود حكمة وادراكاً ليسا فيه ؟ وإن كل هذه الكائنات بالنسبة لك في هذا العدد ، قامت كلها في هذا النظام البديع بقوة ليست متمتعة بحكمة وعلم ؟

ـ قال الرجل : أنا أنكرها والاله ، لأني لم أر صناعها ، كما أرى الصناع للأعمال الأرضية

ـ قال سقراط : انك لا ترى روحك التي هي سلطانة جسمك .. ومسيرته .. وعلى هذا فيمكنك أن تقول قياساً على قولك السابق بأن أفعالك كلها تصدر عنك عن غير حكمة ولا تدبير ، ولكن عن الصدفة والاتفاق

ـ قال الرجل : لترسل لي الآلهة خبراً بما يجب عليَّ عمله أو تركه .. كما تدعي أنها أرسلت لك أنت...

ـ فأجابه سقراط قائلاً : أترى أن الآلهة لما خاطبت الأثينيين بواسطة الاستقسام أتظن أنها لم تخاطبك في زمرتهم ؟ أتظن أنها حين أظهرت لليونانيين ولجميع العالم مكنونات إرادتها بواسطة المعجزات والآيات ـ كنت أنت وحدك الرجل الذي تركته نسياً منسياً .. أتظن أن الآلهة وضعت في أعماق الفطرة الانسانية عقيدة الاقتدار على إحداث الخير أو الشر ولم تهبها قوة تمكنها من إحداثها ؟ أو تظن أن النوع الانساني قد انخدع بذلك كل هذه القرون ولم يشعر بانخداعه إلى اليوم ؟ ألا ترى أن أقدم التأسيسات الانسانية وأحكمها ، والممالك القائمة ، والأمم العظيمة ، هي أكثرها وأشدها تعلقاً بالتقوى والطاعة ؟ اعلم يا صاح أن روحك كما أن لها السلطة التامة على جسمك ، تديره وتدبره كما شاءت ـ كذلك الحكمة المحيطة بهذا الكون لها التصرف والإرادة النافذة فيه .. أيصح أن يكون مرمى نظرك يصل إلى جملة مراحل ، ونظر الأله لا يلم بكل المخلوقات جملة واحدة ؟ وهل تتصور أن روحك تستطيع أن تشتغل في آن واحد بما يحصل هنا وفي مصر وصقلية ، وان العلم الالهي لا يحيط بكل شيء في لحظة واحدة[1] ؟

* * *

يقول العالم الفيزيولوجي اندرو كوتواي[2] :

---

(١) الله والإنسان . عبد الكريم الخطيب .

(٢) من كتاب الله يتجلى في عصر العلم .

هل هنالك إله ؟ نعم إنني أومن بوجوده كما أومن بوجود شيء ألمسه ، وكما أومن بوجود نفسي .. إن الاعتقاد بوجود الله هو الوسيلة الفكرية الكاملة والوحيدة التي تجعل لهذا الوجود معنى وهذا الاعتقاد هو الذي يجعل لوجود الإنسان معنى أكثر من إنه مجرد كتلة من المادة أو الطاقة . والاعتقاد بوجود الله هو المنبع لأسمى فكرة إنسانية حول المحبة والقاعدة التي تقوم عليها الأخوة بين البشر بسبب اجتماعهم على محبة الله وطاعته ، وهو مصدر احساسنا بالحقوق والواجبات ، لأننا لا نتساوى إلا في نظر الحب والعدالة والرحمة المطلقة .. والاعتقاد بوجود الله هو الحصن الذي يعصمنا من الشرور ، وهو بعد ذلك الأساس المتين الذي يقوم عليه الإيمان ، وتدوم بسببه القيم الروحية التي يعتبر وجودها رهيناً بوجوده تعالى ...

إن أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ الفكرة التي تقول (ان الله موجود) كما أن أحداً لا يستطيع أن يثبت صحة الفكرة التي تقول (ان الله غير موجود) . وقد ينكر منكر وجود الله ، ولكنه لا يستطيع أن يؤيد إنكاره بدليل . وأحياناً يشك الإنسان في وجود شيء من الأشياء ، ولا بد في هذه الحالة أن يستند شكه إلى أساس فكري . ولكنني لم أقرأ ولم أسمع في حياتي دليلاً عقلياً واحداً على عدم وجوده تعالى .. وقد قرأت وسمعت في الوقت ذاته أدلة كثيرة على وجوده كما لمست بنفسي بعض ما يتركه الإيمان من حلاوة في نفوس المؤمنين ، وما يخلفه الألحاد من مرارة في نفوس الملحدين ..

والبرهان الذي يتطلبه الملحدون لاثبات وجود الله هو نفس البرهان

الذي يطلب كما لو كان الله تعالى شبيهاً بالإنسان أو شيئاً مادياً ، ولو كان الله مثل هذا الوجود المادي لما وجد هناك مجال للشك في وجوده ولكن الله أراد ضمن ما أراد أن يختبر عقولنا حول الإيمان به ، فترك لنا حرية الاختيار لكي يؤمن به من يؤمن وينكره من ينكر . فالانسان يستطيع إذا شاء ـ بخداع نفسه ـ أن ينكر وجود الله ، وعليه أن يتحمل النتائج . ومعظم الملحدين والمارقين من الأديان ينظرون إلى الله كما لو كان بشراً يمكن التعامل معه تعامل الأنداد فيقولون مثلاً : سوف أعتقد بوجود الله إذا شفاني من مرضي ، أو إذا أنزل المطر أو إذا قضى حاجتي ، أو إذا أوقف الفيضان ، أو إذا محا الشر والظلم من الكون .. الخ وقد يقول بعضهم : إذا كان هناك إله عادل ما أصابني وجع في أسناني . ومعنى ذلك بعبارة أخرى إنني أومن بالله إذا بني الكون أو عدله تبعاً لخطتي الخاصة التي تقوم على الأنانية وتبعاً لصالحي الشخصي .. ! ! !

ولا مناص من الوصول إلى الله ، ولكي يفكر الإنسان فيه تفكيراً مستقيماً لا عوج فيه ولا نفور. عليه أن يحرر عقله من الأنانية ومن الأحقاد ومن كل ما يعوق التفكير الصافي السليم حتى يتسنى له أن يصل إلى الله ويحبه ، وبذلك يسهم في محاربة الشرور والظلم الذي يتحدث عنه من يشكون في أمره ووجوده تعالى ، فلقد اقتضت حكمة الله أن يستخدم الإنسان عقله وإرادته وحريته في اتخاذ القرارات اللازمة لمحاربة هذه الشرور حتى يصير حكم الله في الأرض مثل حكمه في السماء ..

إن اعتقادي بوجود الله الذي خلق كل شيء ، والذي يوجد داخل

الكون وخارجه ، والذي يرعاني ويرعاك ، يقوم أولاً على استخدام العقل ، ثم يقوم بعد ذلك على الإيمان والأمل والمحبة . فأنا لا أستطيع أن أمتلك الإيمان والأمل والمحبة إلا إذا كانت كلها قائمة على أساس العقل .. ولا يجوز لإنسان أن يتخلى عن عقله ، بل لا بد من استخدامه استخداماً دقيقاً قوياً ، والإيمان الذي لا يسبقه العقل يعتبر إيماناً ضعيفاً هزيلاً ، ويكون عرضة للهجمات الفتاكة والهزيمة الساحقة .

والاعتقاد بالله يقوم على نفس المبادىء الفكرية التي يقوم عليها الإيمان بمستقبل التقدم المادي ، وهي نفس الأسباب التي تجعلني وتجعلك نعتقد بأن الشمس سوف تشرق صباح الغد أو أنني سأعيش غداً وأذهب إلى عملي وأستمتع به . فإذا كان التفكير هو وسيلة التقدم المادي ، فلماذا لا يكون كذلك وسيلة للتقدم الروحي والأخلاقي ؟ ولا بد أن يكون لدى كل منا الشجاعة التي تجعله قادراً على توضيح الأسباب التي تجعله يؤمن بدين من الأديان وأن يثبت مدى إيمانه بصحة هذا الدين وإخلاصه له بما يؤديه من الأعمال الصالحة ..

ومع ذلك فإنه حتى عندما يقول الناس إنهم يعتقدون بوجود الله على أساس التسليم ، فاننا نجد أن هذا التسليم لا بد أن يكون قائماً على أساس معلومات سابقة ، أو خبرة سابقة ، أو تفكير سابق . فالتسليم بأي شيء لا يمكن أن يقوم إلا على أساس من المعرفة والتفكير . فإذا قلنا أن وجود الله أمر واضح أو بدهي ، فان ذلك قد يعني أننا لا نستطيع أن نتناول الموضوع بطريقة علمية أو شكلية بسبب نقص في تعليمنا ، أو لأننا لم يسبق لنا تنظيم تفكيرنا حول الموضوع أو بسبب عدم الاستعداد

للمناقشة . أو غير ذلك من الأسباب الأخرى . انني لم أعثر في حياتي كلها على شخص واحد لا يستطيع عند مناقشة هذا الموضوع أن يبين لماذا يعتقد أو لماذا ينبغي أن يعتقد بوجود الله . وتشير معظم الأسباب إلى أنه لا بد أن يكون لهذا الكون من خالق وتلك القوانين التي يسير عليها الوجود من صائغ ، وأنه لا يمكن أن تكون هناك آلة دون صانع تلك حقيقة أساسية يدركها كل إنسان عاقل .

وكما قال ماكس بلانك العالم الطبيعي الذي فتح الطريق إلى أسرار الذرة : ان الدين والعلوم الطبيعية يقاتلان معاً في معركة مشتركة ضد الشك والجحود والخرافة . ولقد كانت الصيحة الجامعة في هذه الحرب وسوف تكون دائماً : إلى الله .

نظرة إلى فوق

اني لأعجب ممن يتطلع إلى السماء
ويشاهد عظمة الخلق ثم لا يؤمن
بعد ذلك بالله .

ابراهام لنكولن

قال الشيخ الحكيم لتلميذه الحائر [1] :

تعال يا حيران ننظر كما أمرنا الله . وعلى ضوء العلم إلى ما في هذه السموات من شيء مخلوق بلا تفاوت ، وبنيان مشيد بلا عمد ، وإلى ما في بنائها من نجوم لا تعد ..

إن السعة التي عرفها العلم اليوم عن السماء لم تكن تخطر على قلب بشر أنت تعلم أن الضوء يقطع في الثانية ١٨٦ ألف ميل أو ٣٠٠ ألف كيلومتر ، أي أنه يقطع في الدقيقة ١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل ، ويقطع في السنة الواحدة من سنينا ستة ملايين مليون ميل أو ستة آلاف مليار ميل ، وهذه المسافة هي التي اصطلحوا على تسميتها (بالسنة الضوئية) ليعبروا بها عن أبعاد السماء الهائلة ، فإذا قيل لنا أن نجماً يبعد عنا سنة ضوئية فهمنا أنه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل ..

فالقمر يا حيران وهو أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض يصل

---

(١) من قصة الإيمان . بين الدين والعلم للشيخ نديم الجسر .

نوره إلينا في أقل من ثانيتين لأنه يبعد عن الأرض بحوالي ٢٤٠ ألف ميل .

أما الشمس فيصل نورها إلينا في ٨ دقائق لأن بعدها عن الأرض يقدر بحوالي ٩٣ مليون ميل ..

فهل تدري يا حيران كم يبعد عنا أقرب نجم إلينا بعد الشمس ؟
قال الشيخ الحكيم : ان أقرب نجم إلى الأرض يبعد عنها أربع سنوات ضوئية ومعنى ذلك أنه يبعد عنا ٢٣ مليون مليون ميل .

قال الفتى الحيران لأستاذه الحكيم : هذا شيء هائل .. هائل جداً يا مولاي . .

فقال الاستاذ لتلميذه : هذا شيء تافه لأن هناك (النسر الطائر) الذي يبعد عنا ١٤ سنة ضوئية ، و (النسر الواقع) الذي يبعد عنا ٣٠ سنة ضوئية (والسماك الرامح) الذي يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية أي ٢٩٤ مليون . مليون ميل ..

قال الفتى الحائر لأستاذه الشيخ : ـ شيء هائل ..

قال الأستاذ : هذا أيضاً تافه ، فوراء ذلك نجوم تبعد عنا ألف سنة ضوئية ووراء مجرتنا هذه سدم منها سديم (المرأة المسلسلة) الذي يبعد عنا مليون سنة ضوئية . فهل يكفيك هذا يا حيران لتدرك معنى قول الخلاق العظيم

« والسماء بنيناها بأيدٍ وانا لموسعون » .

قال الفتى الحيران لأستاذه الحكيم : زدني يا مولاي من هذه العجائب زدني

قال الشيخ : خذلك كتاباً من كتب الفلك واقرأه تزد د ايماناً وخشوعاً يا حيران: بماذا أحدثك أأحدثك عن أحجام النجوم والشموس التي تبهر العقول ؟ أأحدثك عن الأضواء التي تبهر الأبصار ؟ وما قولي تبهر الأبصار كأني أحدثك عن شمسنا .. إن هناك نجوماً أبهر نوراً من شمسنا وأكبر ، وما شمسنا هذه يا حيران في نورها وحجمها بالنسبة للنجوم الكبرى .. إن نور شمسنا يبلغ بتقدير العلماء ثلاثة آلاف مليون مليون شمعة ولكن ما قولك إذا عرفت أن نور النجم المسمى (الشعرى اليمانية) أقوى من نور شمسنا ستة وعشرين مرة ، وأن هنالك في النجوم البعيدة شموساً نورها أقوى من نور شمسنا بمائة مرة . . وماذا تقول يا حيران إذا عرفت أن العلم اكتشف اليوم أن هناك نجوماً نورها أقوى من نور شمسنا بـ ٥٠٠ ألف مرة ..

قال الفتى الحيران لأستاذه الحكيم : سبحان الله العظيم كيف تقف هذه الأحجام والأوزان الهائلة في الفضاء بهذا التوازن العجيب .. ؟

قال الشيخ : يجيبك القرآن عن ذلك يا حيران :

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » .

ويقول العلم : إن هذا الإمساك يحصل بقوة الجاذبية التي شاهد العلماء آثارها وأحصوا أطوارها ، ومسوا سطوحها ، ولم يسبروا أغوارها ، وعرفوا قوانينها ونواميسها ولم يعرفوا بعد أسرارها ..

ولعمري إنه الحق ما قالوا .. فالجاذبية حق ، وقوانينها المحسوبة المتناسبة المتزنة حق وكل ذلك من صنع الله الحق . . .

« وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » ..

صدق الله العظيم

مزيداً من الحقائق

قيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ... ؟

فقال رضي الله عنه :

أفأعبد ما لا أرى ؟

قيل : وكيف تراه ؟

قال : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان .

نهج البلاغة

لو لم يكن هذا الكلام مكتوباً في « نهج البلاغة » .. ونسبته إلى الامام علي موثقة .. لقلت : إن كاتب هذا الكلام عالم متخصص في كل علوم الأحياء ، والفلك والجيولوجيا .

ولكن مأساتنا نحن .. المسلمين أننا لا نعرف من تراثنا شيئاً . . ونعيش على « فتات » غيرنا علماً ... وثقافة ... وفكراً .. وحتى ما نعرفه من هذا التراث . نعرفه بعد أن يجيء إلينا « مصدراً » وموثقاً من آخر الدنيا ..

وأعترف أنه لولا حرصي – ككاتب – على التجديد والبحث ... ما كنت عرفت عن هذه الحقيقة شيئاً .. أقرر ذلك رغم أني قرأت كتاب « نهج البلاغة » هذا .. منذ أربعين عاماً ...

فماذا قال الإمام علي في « نهجه » ؟ أو ماذا قدم في «كتابه» من

أدلة يؤكد بها وجود الخالق جل شأنه[1] ؟

« لو فكروا في عظيم القدرة ، وجسيم النعمة ، لرجعوا إلى الطريق ، وخافوا عذاب الحريق ، ولكن القلوب عليلة ، والبصائر مدخولة[2] .

ألا ينظرون إلى صغير ما خلق ؟ كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه ، وخلق له السمع والبصر ، وسوى له العظم والبشر ؟

انظروا إلى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على أرضها ؟ ووصبت على رزقها[3] تنقل الحبة إلى جحرها ، وتعدها في مستقرها ، تجمع في حرها لبردها ، وفي ورودها لصدرها[4] مكفولة برزقها ، مرزوقة بوفقها[5] لا يغفلها المنان ، ولا يحرمها الديان ، ولو في الصفاء اليابس ، والحجر الجامس[6] ولو فكرت في مجاري أكلها ، وفي علوها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها[7] وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت

---

(١) انظر « نهج البلاغة » ص ٤٠ وما بعدها . ط . بيروت ١٣٨٧ هـ تحقيق الدكتور صبحي الصالح .

وانظر « نافذة على الايمان » لفضيلة الاستاذ الشيخ مصطفى الطير ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) أي مصابة بالدخل وهو الفساد .

(٣) أي تعبت في جمعه وواظبت على جلبه ، والوصب : التعب .

(٤) الصدر : الرجوع بعد الورود

(٥) أي مرزوقة بما يوافق طبعها .

(٦) الصفا : الحجر الأملس العريض ، واحدة صفاة ، والجامس : الجامد .

(٧) الشراسيف : جمع شرسوف بوزن عصفور ، وهو الطرف اللين .

من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً ، فتعالى الذي أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه في خلقها قادر [١] ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة الا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة ، لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كل حي ، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف ، والقوي والضعيف ، في خلقه إلا سواء .

وكذلك السماء والهواء ، والرياح والماء ، فانظر إلى الشمس والقمر والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال [٢] وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفات ، والويل لمن جحد المقدر ، وأنكر المدبر .

زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع ، ولا لاختلاف صورهم صانع ، ولم يلجأوا إلى حجة فيما ادعوا ، ولا تحقيق لما دعوا ، وهل يكون بناء من غير بانٍ ، أو جناية من غير جانٍ ؟

وإن شئت قلت في الجرادة ، إذ خلق لها عينين حمراوين ، وأسرج لها حدقتين قمراوين [٣] وجعل لها السمع الخفي ، وفتح لها الفم

---

(١) أي ليس هناك قادر غيره تعالى اعانه في خلقها ، والفاطر : هو الخالق والدلالة على الخالق من صنع النملة والنخلة ، مع صغر الأولى وعظم الثانية فكلتاهما تدل على الصانع الحكيم القدير العليم

(٢) القلال هنا بمعنى الجبال ومفرده قلة بضم القاف .

(٣) مضيئتين تضيئان لها كما يضيء القمر فترى ما تقصده .

السوي ، وجعل لها الحس القوي ، ونابين بهما تقرض ، ومنجلين بهما تقبض[1] يرهبها الـزرّاع في زرعهم ولا يستطيعـون ذبها ولـو أجلبوا بجمعهم[2] حتى ترد الحرث في نزواتها[3] ، وتقضي منها شهواتها ، وخلقها كله لا يكوّن إصبعاً مستدقة[4] فتبارك الله الذي يسجد له ما في السموات والأرض طوعاً وكرها ، ويعنو له خدًّا ووجها[5] ويلقي إليه بالطاعة سلماً وضعفاً ، ويعطي له القياد[6] رهبة وخوفاً ، فالطير مسخرة لأمره ، أحصى عدد الريش منها والنفس ، وأرسى قوائمها على الندى واليبس[7] وقدر أقواتها وأحصى أجناسها ، فهذا غراب وهذا عقاب[8] وهذا حمام وهذا نعام دعا كل طائر باسمه ، وكفل له برزقه ، وأنشأ السحاب الثقال ، فأهطل ديمها وعدد قسمها[9] ، فبلّ الأرض بعد جفوفها ، وأخرج نبتها بعد جدوبها[10] .. »

* * *

---

(١) أي لها رجلان يشبهان المنجل في الاعوجاج والشرشرة .

(٢) أي لا يستطيعون دفعها ولو صاحوا جميعاً .

(٣) نزواتها وثباتها ، والحرث الزرع .

(٤) مستدقة أي دقيقة أو صغيرة .

(٥) أي يخضع له خدها ووجهها .

(٦) القياد حبل يقاد به .

(٧) المراد من الندى هنا : مقابل اليبس ، فيشمل الماء ، كأنه يريد أن الله أقدرها على الوقوف على الماء .

(٨) العقاب : طائر من كواسر الطير قوي المخالب .

(٩) أهطل ديمها . أدام المطر من سحائبها ، والهطل بفتح الطاء : تتابع المطر والدمع ، والديم : جمع ديمة ، وهي مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق وقسمها أي أحصى ماقسمه لكل بقعة .

(١٠) جدوب الأرض : يبسها لاحتجاب المطر عنها .

لقد نشر منذ خمسة وعشرين عاماً «كتاب» لمجموعة من العلماء المتخصصين في مختلف فروع المعرفة الحديثة Technology وقد أسهم كل عالم من هؤلاء العلماء ببحث عن «الله» والإيمان بوجوده من خلال الدراسة العملية في مادة تخصص كل عالم وأبحاثه ...

فقد كتب «فرانك آلن» عن «نشأة العالم» وهل كان مصادفة أم عن تدبير وقصد واختار «ميرابت ستانلي» لبحثه عنواناً سماه «درس من شجرة الورد» .

أما العلماء الآخرون فقد اختاروا لبحوثهم أسماء أخرى تختلف باختلاف تخصص كل عالم في «المادة» أو في «ما وراءها» من أسرار يعجز العلم عن ادراك أتفهها وأحقرها ...

وعلى سبيل المثال كتب «توماس دافيد» بحثه تحت عنوان «الماء يروي لك القصة» واختار «لورانس ووكر» لبحثه عنوان .. «حقائق من سجل الغابات» وكتب «إيرل ربكس» بحثه باسم «الكون تحت سيطرة مركزية ...»

أما «روبرت هورتون» فقد كتب بحثه تحت عنوان «الانسان ذاته هو الدليل ..» وأخيراً يسجل «أندرو كونواي» العالم الفيزيائي الشهير بحثه تحت عنوان «وجود الله حقيقة مطلقة» ...

لقد أشرنا إلى بعض بحوث هذا الكتاب الذي صدر باللغة الانجليزية في الأصل The Evidence of God in an Expanding universe

ثم ترجم إلى اللغة العربية تحت عنوان « الله يتجلى في عصر العلم ... [1] »

فماذا يقول هذا الكتاب ... ؟

أو ماذا يقول بعض من كتبوا في هذا الكتاب ؟

فلنستمع إلى « جورج دافيز » عالم الطبيعة ورئيس قسم البحوث الذرية في البحرية الأمريكية – أولاً :

« ... مع تقدم الكشف العلمي ، ظهرت أسئلة لا مفر منها ، وهي أسئلة ليست مبتكرة وإن كانت تبدو جديدة بسبب النظرة الحديثة إلى تكوين هذا الكون الذي يعتبر الانسان جزءاً منه لا يتجزأ . ومن هذه الأسئلة ذات القيمة الكبيرة بالنسبة لمسؤولياتنا ومصيرنا النهائي ذلك السؤال القديم « **هل يوجد إله علوي هو خالق هذا الكون ؟** » .

وهنالك سؤال آخر أكثر صعوبة من سابقه وهو السؤال الذي يردده كثير من الأطفال في موجة من موجات الألمعية الخاطفة التي تطوف أحياناً بمخيلاتهم وهو « **إذا كان لهذا الكون خالق ، فمن الذي خلقه ؟** » .

ولا يمكننا أن نثبت وجود الله عن طريق الالتجاء إلى الطرق المادية وحدها إذ لم يقل أحد بأن الله مادة حتى نستطيع أن نصل إليه بالطرق

---

(١) قام بالترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان وراجعه وعلق عليه الدكتور محمد جمال الفندي – القاهرة – ١٩٦٠ .

المادية ولكننا نستطيع أن نتحقق من وجود الله باستخدام العقل والاستنباط مما نتعلمه ونراه ، فالمنطق الذي نستطيع أن نأخذ به ، والذي لا يمكن أن يتطرق إليه الشك ، هو أنه ليس هنالك شيء مادي يستطيع أن يخلق نفسه .

وإذا سلمنا بقدرة الكون على خلق نفسه ، فاننا بذلك نصف الكون بالألوهية . ومعنى ذلك أن نعترف بوجود إله ، ولكننا نعتبره إلهاً مادياً وروحياً في نفس الوقت وأنا أفضل أن أؤمن باله غير مادي خالق لهذا الكون تظهر فيه آياته وتتجلى فيه أياديه ، دون أن يكون هذا الكون كفواً له .

وأحب أن أضيف إلى هذا الاستدلال ، استدلالاً آخر : وهو أنه كلما ارتقى وتقدم نظور المخلوقات ، كان ذلك أشد دلالة على وجود خالق مدبر وراء هذا الخلق .

إن التطور الذي تكشف عنه العلوم في هذا الكون ، هو ذاته شاهد على وجود الله . فمن جزئيات بسيطة ليس لها صورة معينة وليس بينها فراغ نشأت ملايين من الكواكب والنجوم والعوالم المختلفة لها صور معينة وأعمار محددة تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل البشري عن الإحاطة بمدى إبداعها .

هذه أدلة كافية ، ولكن هنالك ما هو أشد إعجازا وأكثر دلالة على وجود الله . فمن تلك الجزئيات البسيطة لم تنشأ النجوم والكواكب

فحسب ، بل نشأت كذلك أنواع متطورة من الأحياء ، بل كائنات تستطيع أن تفكر وتبتكر وتخلق أشياء جميلة ، بل هي تبحث عن أسرار الحياة والوجود . إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله ، وإنها تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها » .

* * *

أما الدكتور « ألبرت ماكومب » أستاذ علم الأحياء ، والرئيس السابق لأكاديمية العلوم فيقول ويتساءل :

هل من الممكن أن يكون للمشتغل بالعلوم نفس الاعتقاد بوجود الله ، والتقديس له ، كغير المشتغل بالعلوم ؟ وهل يوجد في دائرة المستكشفات العلمية ما يمكن أن يقلل من تقدير الانسان لقدرة الخالق الأعظم وجلاله ؟ تلك أسئلة تطوف أحياناً بعقول بعض من يظنون أن العلماء في مُيادين بحوثهم المتسعة يكتشفون من الحقائق ما قد يتعارض مع الدين حسب تفسير بعض المفسرين .

ومن أمثلة ذلك ما حدث لي شخصياً عندما كنت طالباً بالجامعة وكنت قد قررت أن أدرس العلوم . وإنني لأذكر جيداً كيف أخذتني إحدى عماتي جانباً ذات يوم وتوسلت إليّ أن أعدل عن هذا القرار ، لأن العلوم ، كما كانت تعتقد ، سوف تقضي على إيماني بالله . لقد كانت تعتبر ، كما يعتبر الكثيرون ، أن العلوم والدين قوتان — متعارضتان ، وأنهما لا يمكن أن يجتمعا في قلب رجل واحد .

وأنني لأشعر بالغبطة تملأ قلبي اليوم ، بعد أن درست العلوم المختلفة ، واشتغلت بها سنوات عديدة ، ولم يكن في ذلك ما يزعزع إيماني بالله ، بل إن اشتغالي بالعلوم قد دعم إيماني بالله حتى صار أشد قوة وأمتن أساساً مما كان عليه من قبل .

ليس من شك أن العلوم تزيد الانسان تبصراً بقدرة الله وجلاله ، وكلما اكتشف الانسان جديداً في دراسته وبحثه زاد بالله ايمانه ..

ان الانسان لا يستطيع أن يدرس أعمال أي صانع من الصناع دون أن يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذي أبدع تلك الأعمال ، وكذلك نجد أننا كلما تعمقنا في دراسة أسرار هذا الكون وسكانه ، ازددنا معرفة بطبيعة الخالق الأعلى الذي أبدعه . وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء ، وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة ، وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون .

انظر إلى نبات برسيم ضئيل وقد نما على أحد جوانب الطريق . فهل تستطيع أن تجد له نظيراً في روعته بين جميع ما صنعه الانسان من تلك العدد والآلات الرائعة ؟ انه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية ، ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية .

فمن أين جاءت هكذا هذه الآلة الحية المعقدة ؟ إن الله لم يصنعها

هكذا وحدها ، ولكنه خلق الحياة وجعلها قادرة على صيانة نفسها وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر . إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهاراً لقدرة الله . إن الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث تصعب مشاهدتها الا باستخدام المجهر المكبر ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات : كل عرق ، وكل شعيرة ، وكل فرع على ساق ، وكـل جذر أو ورقة يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغاً كبيراً فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي ينشأ منها النبات . تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات .

ولهؤلاء المهندسين ذوي الأحجام الضئيلة القدرة على تعديل خواص النباتات التي تنتجها هذه الخلايا الدقيقة في فترات نادرة من الزمان ، فهي بذلك تنتج كائنات أكثر قدرة على التلاؤم من أسلافها . لقد مرت بالبشر فترة كان أغلب الناس يعتقدون فيها أنه من الكفر أن يعتقد المرء أن الكائنات الحية التي تعيش اليوم على سطح الأرض كانت في يوم من الأيام على صورة تخالف الصورة التي خلقها الله عليها بادئ الأمر أما في الوقت الحاضر فان معظم المفكرين يرون أن خلق كائنات لها القدرة على التكاثر وعلى تغيير أشكالها وتركيبها ، تبعاً للظروف التي تحيط بها ، يعد أشد دلالة على قدرة الله من خلق كائنات لا تتطور ولا تستطيع الا أن تنتج صوراً مكررة من أنفسها طيلة الزمان .

* * *

ترى ماذا يقول « الحائر الصغير عندما يفكر .. »

لقد كتب الدكتور « رسل لويل مكستر » يقول تحت هذا العنوان الجميل المبتكر ..

يعرف الانسان ربه لأول مرة عن طريق والديه ، فهما يستخدمان لفظ الجلالة بكل تقديس ، وبذلك يتعلم الطفل منذ صغره أن يلجأ إلى الله بطريقته البسيطة ، وأن يسأله أن يقضي له حوائجه بنفس الطريقة التي يلجأ بها إلى أبيه ويكون الطفل في هذه المرحلة راضياً ومطمئناً إلى ربه الذي لا يراه .

ثم يكبر الطفل ويقرأ في الكتب قصص المؤمنين الذين ساروا في طريق الله فكان ذلك نجاة لهم من الوحوش ، وبرداً وسلاماً عليهم من النار ، ومنجاة من ضرب السيوف وقوة من ضعف ، وتأييداً في مواقف القتال . وكم يستولي على الطفل الاعجاب ببطولة هؤلاء المؤمنين ، وكم تتوق نفسه إلى الاقتداء بهم واتخاذهم أسوة له في حياته . إنه يرى أن ذلك يعينه على صيانة الأمانة ، ويشعر ان له رفاقاً من الماضي يشدون أزره ، ويقوون عزيمته ويبثون الشجاعة في نفسه على مدى الحياة .

فإذا دخل الطفل المدرسة جذبته في اتجاهين متعارضين : فهي من جهة تقوي إيمانه بالله ، وهي من جهة أخرى تضعف إيمانه به . وهو يتعلم أن بلاده تتألف من جماعات كثيرة بينها مصالح مشتركة ، ويقود كل جماعة من هذه الجماعات رئيس أو زعيم ، ويسيطر على جميع

هؤلاء الرؤساء قائد كبير يفرض الأمور على الناس ، وعلى الناس جميعاً أن يطيعوا أوامره .

ويتصور الطفل الاله المسيطر على هذا الكون في صورة الرئيس من حيث سلطته التي يفرضها على الآخرين . ولما كان من الطبيعي أن يكون للناس قائد يدبر أمورهم فلا بد أن يكون لهذا الكون مدبر يدبره ويفرض سلطانه على جميع البشر والكائنات .

ومن جهة أخرى فانه إذا كان الناس ينتخبون رئيسهم ، فان فكرة وجود الله بالنسبة إلى هذا التلميذ الصغير قد لا تعدو أن تكون مجرد صورة ذهنية تجول في عقول الناس . وكثيراً ما تستولي الحيرة على عقل هذا الطفل فيتساءل : ترى هل يوجد اله حقيقة ؟ وإذا كان يوجد فما كنهه وما صورته ؟ وعندما يصل الطفل إلى هذه المرحلة من الشك والوساوس ، كثيراً ما يطرح تفكيره العقلي في الله جانباً ، وقد يسلم بوجوده استسلاماً ، وقد يطلب إلى اصدقائه أن يبتعدوا عن الحديث في هذا الموضوع حتى لا يثيروا قلقه ، وعندئذ يصير الطفل تائهاً حائراً . فهو يؤمن بوجود الله لأنه يشعر انه يجب عليه أن يكون مؤمناً ، وهو في الوقت ذاته لا يحب أن يعبث عقله بايمانه .

ويقرأ الطفل أحد الكتب المقدسة ، ويجد فيه أن الانسان يستطيع أن يصل الى الله باستخدام عقله ، وأنه لا بد أن يقوم الايمان بالله على أساس المنطق والتفكير ، وعندئذ يجد صاحبنا في البحث والدراسة ،

وقد يتحول من الحائر الصغير إلى المؤمن الكبير فتنسجم روحه مع عقله ويدرك كمال الله وحكمته .

* * *

ان الفطرة النقية لا يمكن أن تتردد في الايمان بالمبدع العظيم ، ان البدوي الساذج أو الفيلسوف العظيم لا يستطيع أن يتنكر لصوت الحق المدوي في أعماقه ، بل يجيبه : لبيك لبيك ..

هذا اعرابي يحدو ناقته في دروب الصحراء الساجية ، والليل داج والسماء صافية والدراري تتألق من فوقه فتهديه إلى خير الطرق ، فيبهره هذا الجمال وتهز كيانه تلك الآيات ، فيقول في براءة وطهر : « البعرة تدل على البعير ، وآثار السير تدل على المسير ، فأرض ذات فجاج ، وسماء ذات أبراج ، وبحار ذات أمواج ، كل ذلك يدل على اله حكيم قادر عليم » .

يقول ذلك وقد نشأ بين قوم يعبدون الأصنام ، واشترك معهم في عبادتها ولكنه لما عاد إلى فطرته النقية ، استسلم لداعي الهدى ونحى عن نفسه ما غشاها من حجاب التقليد .

وهذا عالم ألماني نشأ يؤمن بالطبيعة ، ويزعم أنها هي الخلاقة ، ظل هذا العالم في غفوته ، حتى صحا على صوت الحق يمرق الى شغاف قلبه ، ويستولي على مشاعره وأحاسيسه ، فكفر بالطبيعة وآمن بالحق تبارك وتعالى .

كان هذا العالم من علماء الأحياء (البيولوجيا) ، وفي يوم كان في معمله وحوله تلاميذه يفحصون زهرة نادرة ، لم يسبق لهم مشاهدتها ، فراع العالم ما فيها من ابداع وجمال تنسيق ، وملك عليه أحاسيسه ، فصاح بين تلاميذه صيحة مدوية وهو يقول : « الآن عرفت الله » ! ! !

سمع التلاميذ هذه الصيحة العاتية فهربوا ، ظانين أن استاذهم مسه جنون ، فدعاهم إليه وطمأنهم عليه ، وقال : « يا أبنائي كنا غافلين . ان الطبيعة التي استطال ايماننا بها ، لا يمكن أن تخرج هذا الابداع ، إن وراء هذه الروعة وذلك الابداع ، قدرة خلاقة عالمة مدبرة ، هي التي أبدعت هذا الجمال ، ونسقت تلك الألوان ونشرت هذا العبير ، ان هذه القدرة لا تكون الا لخالق واحد جليل . هو الذي أبدع هذا الكون ، وبث فيه هذه العظمة والجلال والجمال ، ان الطبيعة لا عقل لها ولا تدبير وما هي الا أداة مسخرة لقدرة ذلك الخالق ، يأمرها فتأتمر ، ويذللها فتخضع ، انه رتب فيها نواميس تجري عليها تحت عنايته ، لو سها عنها طرفة عين لاختل نظامها وتحطم بنيانها ، انه هو الرب الذي يجب أن نصلي له ونشكره على فضله » .

هكذا صحا العالم على صيحة الحق ، فكشف عن نفسه غطاء التقليد لمدرسة العابدين للطبيعة ، وهكذا يعود الى فطرة الله التي فطر الناس عليها .

ان هذا الفكر الجديد للعالم الألماني يقرره الدكتور «كريسي

موريسون »[1] – رئيس الأكاديمية العلمية ، بنيويورك سابقاً – فيقول في كتابه : « العلم يدعو الى الايمان » Man does not stand alone

« ان أية ذرة أو جزئية لم يكن لها فكر قط ، وأي اتحاد للعناصر ، لم يتولد عنه رأي أبداً ، وأي قانون طبيعي لم يستطع بناء كاتدرائية .. ثم يقول : فما هو هذا الكائن الحي الذي خلق المادة والحياة ؟ إنه شيء غير ملموس أعلى كثيراً من المادة ، لدرجة انه يسيطر على كل شيء ، ومختلف جداً عن كل ما هو مادي مما صنع منه العالم ، لدرجة انه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه ...

سبحانه جل شأنه : « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »[2] .

ان جهاز الهضم كما يقول الدكتور موريسون[3] معمل (كيموي) عجيب ، فانا نضع في هذا المعمل أنواعاً عديدة من الطعام ، دون مراعاة للمعمل نفسه أو تفكير في كيفية معالجة (كيميا) الهضم له ، فنحن نأكل شرائح اللحم والكرنب والسمك والخبز وغير ذلك ، وندفعها بأي قدر من الماء ، ومن بين هذا الخليط تختار المعدة ما فيه فائدة ،

---

(١) وكان أيضاً عصو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة ، والزميل بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي ، والعضو مدى الحياة بالمعهد الملكي ببريطانيا .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .

(٣) العلم يدعو الى الايمان من ١٥١ – ١٥٤ .

بتحطيم كل صنف من الطعام الى أجزائه (الكيموية) وتختار الجير والكبريت واليود والحديد ، وكل العناصر الضرورية ، وتعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية في الفضلات ، كما تعنى بانتاج الهرمونات ، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منتظمة ، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة .

وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى للقاء الجوع الذي يطرأ ، وكذا كل حالة تطرأ على الجسم ، وتفعل ذلك في غفلة من تفكير الانسان ، ودون تدخل منه في عملها .

اننا نصب هذه الأنواع الكثيرة في هذا المعمل (الكيموي) معتمدين على ما يقوم به الجهاز الهضمي تلقائياً لابقائنا على الحياة .

وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز ، تقدم باستمرار إلى بلايين الخلايا التي تتجاوز عدد الجنس البشري على وجه الأرض .

وكل خلية يردها باستمرار ما هو منوط بها ، فلا يأتيها من خلاصة الأغذية ما هو منوط بغيرها ، فتقوم تلك الخلايا بتحويلها إلى غذاء صالح للعظام والأظافر واللحم والشعر والعينين والأسنان وتقدمها إلى ما هي مسؤولة عنه وهذا المعمل ينتج من المواد (الكيموية) أعظم مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الانسان ، ويورده بنظام أعظم من أي نظام للنقل والتوريد عرفه العالم .

ومنذ الطفولة إلى سن الخمسين لا يخطئ هذا المعمل خطأ ذا بال

مع أن المواد التي يعالجها ، أكثر من مليون نوع من الجزئيات ، وكثير منها سام .

وحينما تصبح قنوات التوزيع متباطئة من طول الاستعمال وحلول الشيخوخة ينتابنا الضعف .

ان الطعام الأصلي حين تستوعبه كل خلية ، لا يزال مجرد طعام أصلي ثم تصبح عملية كل خلية عملية (احتراق) وأنت لا يمكنك أن تأتي باحتراق دون إشعال ، ولكن كل خلية أمدها الله (بالأوكسيجين) وغيره مما يولد الاحتراق والحرارة والدفء اللازم .

وفي حالة العدوى بجراثيم ضارة ، يحتفظ الجسم بجيش دفاعي جهزه له الجهاز الهضمي لملاقاة الغزاة ، وهو عادة يتغلب عليها ، فينجو الانسان من موت مبكر .

ومثل هذه المجموعة من المعجزات لا يمكن أن توجد في غيبة الحياة ، وكل ذلك يتم في نظام كامل ، والنظام مضاد للمصادفة ، ان ذلك كله يقطع بأنه من صنع الخالق .

ثم يقول الدكتور «كريس مورسون» مؤكداً ... انه ليس للعلم حق في أن تكون له الكلمة الأخيرة بشأن وجود الخالق ، حتى يقول تلك الكلمة بصفة نهائية والى الأبد ، إن كون الانسان في كل مكان ومنذ بدء الخليقة حتى الآن ، قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم يدل على أن الدين فطري ويجب أن

يقر العلم بذلك « ثم قال » :

« يجب أن تأخذنا الروعة والدهشة والاجلال لاتفاق البشر في نواحي العالم على البحث عن الخالق ، والايمان بوجوده ، أو ليست روح الانسان هي التي تشعر باتصالها بالله » ثم قال :

« إن وجود هذا الحافز هو برهان على قصد العناية الالهية ، ولا يقل شأناً عن عقل الانسان المادي العجيب ، الذي يكمن فيه كونه الحساس » . ثم قال :

« والعلم يعترف باشتياق الانسان الى أشياء أسمى منه ، أو يقر ذلك ، غير أنه لا ينظر جدية الى مختلف العقائد ، والمذاهب ، وان يكن يرى فيها طرقاً تتجه إلى الله والذي يراه العلم ويقدره جميع المفكرين هو أن الاعتقاد العام بوجود الله له قيمة لا تقدر» وقال :

« ان تقدم الانسان من الوجهة الخلقية وشعوره بالواجب ، انما هما أثران من آثار الايمان بالله والاعتقاد بالخلود ، وان غزارة التدين لتكشف عن روح الإنسان وترفعه خطوة خطوة حتى يشعر بالاتصال بالله ، وان دعاء الانسان الغريزي لله بأن يكون في عونه ، هو أمر طبيعي ، وانه أقرب صلاة تسمو به الى مقربة من خالقه ..

ان الوقار والكرم والنبل والفضيلة والالهام ، وكل ما يسمى بالصفات الإلهية لا تنبعث عن الالحاد ، أو الانكار الذي هو مظهر مدهش

من مظاهر الفرد الانسان في مكان الله »[1] وبدون الايمان كانت المدنية تفلس ، وكان النظام ينقلب الى فوضى ، وكان كل ضابط وكل كبح يضيع ، وكان الشر يسود العالم ، فعلينا اذن أن نثبت على اعتقادنا بوجود الله ، وعلى محبته ، وعلى الأخوة الانسانية ، فان ذلك يسمو بنا نحوه تعالى اذ نفذ مشيئته كما نعرفها ، ونقبل تبعة اعتقادنا بأننا بوصفنا خلقه جديرون بعنايته الالهية »[2] .

« ان القطة العجماء تتبرز ثم لا تنصرف حتى تغطي برازها بالتراب ..

هل تعرف تلك القطة معنى القبح والجمال ... ؟

وهي تسرق قطعة السمك من مائدة سيدها وعينها تبرق باحساس الخطيئة فإذا لمحها تراجعت .. فإذا ضربها على رأسها طأطأت رأسها في خجل واعتراف بالذنب .

هل تفهم القانون .. ؟

هل علمها أحد الوصايا العشر .. ؟

والجمل الذي لا يضاجع انثاه الا في خفاء وستر .. بعيداً عن العيون

---

(١) يريد موريسون : أن الالحاد ضار ، لأنه يعر صاحبه فيتحيل أنه الاله .

(٢) انظر : العلم يدعو إلى الايمان .

و : نافذة على الايمان لفضيلة الاستاذ الشيخ مصطفى الطير ص ٢٨ وما بعدها ط . الأزهر – ١٣٩٣ هـ .

فإذا أطلت عين لترى ما يفعله امتنع وتوقف ونكس رأسه إلى الأرض .

هل يعرف الحياء .. ؟

وخلية النحل التي تحارب لآخر نحلة وتموت لآخر فرد في حربها مع الزنابير ... من علمها الشجاعة والفداء ... ؟

وأفراد النحل الشغالة حينما تختار من بين يرقات الشغالة يرقة تحولها إلى ملكة بالغذاء الملكي وتنصبها حاكمة .. في حالة موت الملكة بدون وارثة .

من أين عرفت دستور الحكم ؟

وحشرات الترميت التي تبني بيوتاً مكيفة الهواء تجعل فيها ثقوباً سفلية تدخل الهواء البارد وثقوباً علوية تخرج الهواء الساخن .

من علمها قوانين الحمل الهوائي .. ؟

والبعوضة التي تجعل لبيضها الذي تضعه في المستنقعات أكياساً للطفو يطفو بها على سطح الماء .. من علمها قوانين أرشميدس في الطفو .. ؟

ونبات الصبار وهو ليس بالحيوان وليس له إدراك الحيوان ، من علمه اختزان الماء في أوراقه المكتنزة اللحمية ليواجه بها جفاف الصحاري وشح المطر .. ؟

والأشجار الصحراوية التي تجعل لبذورها أجنحة تطير بها أميالاً بعيدة بحثاً عن فرص مواتية للانبات في وهاد رملية جديبة ...

والحشرة قاذفة القنابل التي تصنع غازات حارقة ثم تطلقها على أعدائها للارهاب ..

والديدان التي تتلون بلون البيئة للتنكر والتخفي .

والحباحب التي تضيء في الليل لتجذب البعوض ثم تأكله ..

والزنبور الذي يغرس إبرته في المركز العصبي للحشرة الضحية فيخدرها ويشلها ثم يحملها إلى عشه ويضع عليها بيضة واحدة .. حتى إذا فقست خرج الفقس فوجد أكلة طازجة جاهزة .

من أين تعلم ذلك الزنبور الجراحة وتشريح الجهاز العصبي .. ؟

ومن علم كل تلك الحشرات الحكمة والعلم والطب والأخلاق والسياسة ؟

لماذا لا تصدق حينما نقرأ في القرآن أن الله هو المعلم .. ؟

ومن أين جاءت تلك المخلوقات العجماء بعلمها ودستورها ان لم يكن من خالقها »[1] .

ولماذا يقف كثير من الناس من قضايا الإيمان والعقيدة هذا الموقف .. ؟

---

(١) رأيت الله ... د / مصطفى محمود ص ٧ : ٨ .

انه غرور الانسان وجموحه ، هذا الغرور الذي دمر طمأنينة الانسان وروحه ...

* * *

عندما أطلق « الروس » أول سفينة فضائية الى الكون ، وعاد ملاحها « جاجارين » إلى الأرض ... سئل :

هل رأيت الله في الفضاء الأعلى ... ؟

فأجاب جاجارين المغرور :

كلا ... اني لم أر هذه الخرافة ... !

انما رأيت الحزب الشيوعي والدولة ...

هذا المغرور لم يلبث أن سقط محترقاً على الأرض بعد مدة .. سقط ليواجه « الله » الذي جحده بعيداً عن الحزب والدولة ..

* * *

منذ حوالي عشر سنوات ... تعرفت على صديق بريطاني مسلم في ضاحية « Gipsy Hill » بمدينة لندن ..

لقد كان لـ « اسلام » هذا الأخ الانجليزي قصة عجيبة ... قصة تكشف لنا .... أن انسان هذا العصر الذى بلغ من القوة والجبروت بحيث يستطيع أن يقتل ملايين البشر بـ « لمسة اصبع » وهو جالس على بعد آلاف الأميال من ساحة الحرب .. هذا الانسان الجبار المغرور بما

وصل إليه من تقدم هائل في صناعة الدمار والقتل يقف عاجزاً ومشلولاً أمام « فيروس » دقيق يهدد حياته بالفناء والموت .

كان هذا الأخ ممثلاً من ألمع نجوم السينما والمسرح ... وذات يوم أصيب بمرض ذهب بسببه إلى المستشفى .. وفي حجرة الاختبار والفحص ، سمع الأطباء يتحدثون عن اصابته بـ « فيروس » لا يمكن رؤيته بالمجاهر العادية ... بل لا بد لرؤيته من جهاز الكتروني يكبر صورته مليون مرة ...

لقد أصيب صاحبنا باحباط وخيبة أمل ...

ما هذا .. ؟ لقد ثارت أعماقه وبدأ يحدث نفسه .

أنا الممثل الشهير الذي جمع من المال والشهرة ما لا يستطيع ألف رجل أن يجمعوه في ألف سنة . يهاجمني هذا « الفيروس » الحقير الضئيل ... ويقف أمامه الأطباء عاجزين ... ؟

ماذا تفيد الشهرة والمال والنساء .. ؟

بل ماذا تفيد هذه الألوف المؤلفة من المعجبين والمعجبات ... ما قيمة باقات الورد التي كانت تتناثر تحت قدمي كلما أديت دوراً ينبهر منه الناس .. وما قيمة صوري وهي تتصدر اعلانات الصحف والمجلات .. ، وهي تتألق على شاشة التلفزيون .. وعلى أبواب دور المسارح والسينما ... ؟

لقد تضاءل كل هذا أمام « فيروس » حقير عجز عن معرفتــه مشاهير الأطباء ، وأصبحت حياتي كلها رهن هذا الكائن الدقيق الذي لا يرى الا بمجهر الكتروني معقد .... ؟ ألا فلتذهب إلى الجحيم كل هذه الأمجاد الزائفة والوهم الكاذب والغرور الأجوف ..

* * *

وذهب صاحبنا إلى الهند .. أراد أن يعيش حياة الرهبان الهنود ، وأن يشارك فقراء « دلهي » و« بومبي » حياة الشظف والتقشف ..

وهناك في أحد المعابد ألقى رحله ، وخلع ثيابه وامتدت الموسى إلى شعره فلم تعد صلة بين ماضيه وحاضره . ستة أشهر أو تزيد قضاها صاحبنا داخل المعبد . إن الظلام الذي هرب منه عاد فأطبق عليه من كل ناحية والريء الذي كان ينشده استحال إلى غصة في حلقه ..

كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ... أو كان كما يقول « إيليا أبو ماضي » في « طلاسمه » المشهورة :

قيل لي في الدير قوم أدركوا سر الحياة
غير أني لم أجد غير عقول آسنات
وقلوب بليت فيها المنى فهي رفات
ما أنا أعمى فهل غيري أعمى ..
لست أدري ؟

* * *

ونام ذات ليلة .. فرأى نفسه يسير في صحراء موحشة محرقة وعلى بعد ... نظر شجرة فاتجه إليها متلهفاً ... أراد أن يستظل بها من وهج الشمس ، وأن يستريح عندها من تعب القلب .. والنفس ..

لقد فوجئ برجلين يجلسان تحت هذه الشجرة ... رجلان وقوران تكسوهما مهابة أخاذة ، وسمت جميل يجذب الناظر إليهما من أول نظرة ...

ـ من أنتما ؟

ـ أنا أبو بكر .. وهذا أخي عمر .

ـ صاحبا النبي العربي محمد ؟

ـ نعم .

ـ وماذا تفعلان هنا ؟

ـ ننتظر قدوم النبي صلى الله عليه وسلم .

ـ يقول صاحبنا :

فشعرت بقشعريرة لم أشعر بمثلها في حياتي أبداً .. لقد درست فيما درست من تاريخ العالم شيئاً عن الاسلام غير أني لم أكن محباً لا للعرب ولا للاسلام ... فمن الذي جمعني برجلين كانا خليفتين لمحمد .. ؟ .

و .. وجلست صامتاً ..

وان هي الا لحظات حتى رأيت غمامة تظلل الكون كله ..

لقد تغيرت طبيعة المكان في لحظة .. شعرت كأن الصحراء والشمس وما حولي من الجبال والصخور استحالت كلها الى واحة ...

وحين أقبل النبي سلّم عليه أبو بكر وعمر بحرارة .. ثم استدار ووضع يده على قلبي فأحسست ببرد الراحة والسعادة ..

واستيقظت من نومي إنساناً جديداً . وفي مسجد « نيودلهي » كان لقائي بامام المسجد الذي علمني كيف أكون مسلماً ...

فكيف حدث هذا التحول .... ؟

انها قصة « فيروس » دقيق لا يرى إلا بمجهر الكتروني معقد .. !

* * *

في كتاب « العودة إلى الايمان[1] » الذي صدر في الولايات المتحدة الأمريكية منذ حوالى خمسين عاماً ، وتعاد طبعته مرتين في العام الواحد تقريباً ...

يقول مؤلفه الدكتور « هنري لنك » في المقدمة عن أسباب تأليفه لهذا الكتاب :

---

(١) ترجمه إلى العربية الدكتور ثروت عكاشة ونشرته دار المعارف سنة ١٩٥٩ – القاهرة .

« إن عودتي الى حظيرة الايمان لم تكن وليدة الضائقة المالية ولا تقدم سني نحو الشيخوخة فاني والحمد لله ما زلت في مستهل الخامسة والأربعين وما زلت موفور الصحة قوي البنية قادراً على التهام كل ما أشتهي من طعام دون خشية أية عواقب ، كما أنني رجل محظوظ في حياتي الزوجية ولي ثلاثة أطفال هم مصدر سعادتي وغبطتي .

ولكن عودتي الى الايمان ترجع إلى تجاربي مع مرضاي الذين كان الدين هو علاجهم الأمثل في كل ما تعرضوا له من بلايا ومصائب فوجدت نفسي – أنا الكافر الملحد – أتحمس بشدة للدين وأدافع عنه بقوة وحماس .. !

وكما جرفني « العلم » قديماً بعيداً عن الدين كانت عودتي إليه أيضاً عن طريقه هو – أي عن طريق العلم – ومن هنا كان وجه التناقض ...

* * *

وإذا أردنا دليلاً على صدق ما ذهب إليه هذا المؤلف ..

أقصد الدكتور « هنري لنك » فلن نجد تعبيراً أصدق من هذه التجربة التي ترويها لنا مجلة كورنت « Cornet » .

تقول صاحبة هذه التجربة :

لست حجة في أمور الدين ، بل لم أكن متدينة اطلاقاً ، وكنت

ملحدة غير مؤمنة أسخر من كل ما يتصل بالدين ، ولكني رجعت إلى نفسي يوماً ، فلما أدركت فداحة خطئي ووجدت أني أمعنت في تحطيم تلك الفتاة التي كانت يوماً سعيدة ناجحة – وهي أنا – لم يسعني إلا أن أتحسر على نفسي ، ورحت أضرع إلى الخالق في أسى غامر وندم مرير ، أن يرحمني وينقذني .

وكنت كلما أخذتني نوبة من الندم والبكاء كثيراً ما أتساءل : « أين هو الله الذي يصورونه رحيماً محباً عطوفاً ؟ ولماذا يسمح لمخلوقة ضعيفة مثلي أن تحطم حياتها وتجلب العار والحزن واليأس للذين أحبوها وضحوا الكثير كي يحققوا لها الشهرة والنجاح ؟ » ..

ومضت شهور أدركت بعدها أنني كنت مخطئة ، فقد انبثق من الظلمة التي اكتنفت حياتي ذلك الشعاع الهادئ المنبعث من نور اليقين الذي يمسه كل من يراجع نفسه بدقة ويحاول مخلصاً أن يعرف نفسه على حقيقتها .

إنني استطيع الآن أن أبرهن على وجود الخالق ، لا بالبراهين الدينية أو الوسائل العلمية ، فلا علم لي بهذه أو تلك ، ولكن ببراهين مستمدة من حياتي نفسها .

إن الخطأ الأكبر الذي يقع فيه الكثيرون والكثيرات ، ممن يقرون أنهم لا يؤمنون هو أنهم يتخذون هذا القرار قبل أن يدركوا شيئاً يذكر عن حقيقة ذلك الذي لا يؤمنون به ، وعندي ان أول خطوة نحو الايمان

بوجود الله ، أن يدرك المرء أن ثمة قوة أعظم منا ، وأعظم من قوانين الطبيعة التي نعرفها ، وهذه القوة العظمى يمكن أن توجهنا وتهدينا وتنقذنا لو أننا توجهنا إليها وطلبنا معونتها مخلصين ، وحينما نلمس أثر ذلك واضحاً جلياً في حياتنا لن تكون لنا مندوحة عن الايمان بهذه القوة الخفية ، أي الايمان بالله .

ولا شك أن كثيرين منا ، يصعب عليهم أن يدركوا ذلك ، وقد كان صعباً علي أنا كذلك في أول الأمر ، ولكني أخذت بعد ذلك أعيه قليلاً قليلاً خلال أيامي الأولى في ملجأ المدمنات ، الذي أويت إليه بعد أن أخفقت في العثور على مكان آخر يأويني .

كنت حينما التحقت بهذا الملجأ في الرابعة والثلاثين من عمري ، وكنت قد ربحت برغم هذه السن الصغيرة أكثر من مليون دولار ، لكني أنفقتها جميعاً خلال الستة عشر عاماً التي أدمنت فيها الخمور .. !

وفي خلال هذه الفترة نفسها ، تزوجت أربع مرات ، وكنت في كل مرة أخفق في الاحتفاظ بزوجي ، وقد حاولت الانتحار مراراً ، وبلغت حالتي من اليأس والبؤس أن نبذني جميع أقاربي ومعارفي عدا أمي ، فقد بقيت وحدها لي ، برغم أن الناس كثيراً ما كانوا يلومونها على قتلها نفسها ببطء في محاولاتها لانقاذي ، وكانوا يقولون لها مخلصين مشفقين : « أنسي ابنتك . اعتبري نفسك ليس لك ابنة . ان موتها خير من بقائها على قيد الحياة » .

كنت ثائرة الأعصاب ، مشلولة الإرادة ، لا قدرة لي على كبح جماح نفسي ، ولكني في اللحظات القلائل لهدوء أعصابي ، كنت أشعر بالرثاء لنفسي ، وبالأسى والأسف على ما آلت اليه حالتي ، ثم أتساءل حائرة : **اذا كان الله موجوداً حقاً فلماذا لا يرحمني ؟** .

وشاء الله أن كانت جارتي في الملجأ شابة مؤمنة طيبة القلب ، فأخذت تتلطف في مواساتي وتهدئة ثائرتي ، قائلة لي : « آمني أولاً بأن هناك قوة عظمى تستطيع أن تصنع المعجزات ولك الآن أن تسمي هذه القوة بأي اسم شئت ، فالمهم أن تؤمني بوجودها وأن تتجهي إليها بعد ذلك لكي تحقق لك ما عجزت أنت عن تحقيقه ..

وكنت اذ أستمع لحديث جارتي هذه ، أمعن في البكاء ، ثم أعترف لها بأنني لا أستطيع أن أؤمن بقوة في الكون يمكن أن يكون لها أي اتصال بنا .

وفي ذات مرة ، قالت لي جارتي : « فكري فيمن حولك هنا من المدمنين العاجزين الميؤوس من حالاتهم ، لقد كان عددهم أكثر من مائتين ، من الرجال والنساء ، ولكن عددهم الآن قد نقص كثيراً ، اذ شفي منهم كثيرون وكثيرات ، ولولا تلك القوة العظمى وايمانهم بها ، ما استطاعوا التخلص نهائياً من أسر الإدمان . » .. وقد لمست هذه العبارة موضعاً حساساً من ذهني الذي بلده الإدمان فقلت لنفسي : « نعم .. ان كثيرين هنا تخلصوا من لعنة الخمر ، فماذا لو آمنت بهذه القوة وتضرعت إليها مخلصة أن تنقذني من الوهدة التي هويت إليها ؟ » ..

وكانت هذه هي نقطة التحول في مجرى حياتي ، وما لبثت قليلاً حتى تخلصت من سيطرة الخمر وسلطانها على نفسي ، وكان الفضل الأكبر في ذلك لإيماني بوجود تلك القوة العظمى ولاتجاهي إليها مخلصة ، ملتمسة عندها ما عجزت عن تحقيقه لنفسي .

لقد تطور تفكيري كثيراً ، بعد أن شفيت من الادمان .. بدأت أدرك أن هناك أشياء كثيرة ينبغي أن نتقبلها ونؤمن بوجودها وان لم نستطع بحواسنا الخمس أن ندركها أو نعرف ماهيتها ، ان انكار هذه الأشياء ينطوي في الواقع على انكار لملكة التفكير والعقل عندنا ، فنحن لا نستطيع مثلاً أن نفهم ماهية الكهرباء أو الالكترونات ولا نستطيع أن نراها أو نلمسها ومع ذلك لا ننكر وجودها ، لأننا نرى آثارها واضحة جلية ، **فلماذا اذن لا نؤمن بوجود الله ما دمنا نرى آثار صنعه وقدرته ورحمته ، وان لم نكن نراه ؟**

أيهما أصعب – مثلاً – أن تتقبل عقيدة وجود الخالق ، أو أن تتقبل الحقيقة القائلة بأن الحصاة الصغيرة تختزن بداخلها من الطاقة ما يكفي لأن ينسف مدينة كاملة ؟

ولن أنسى ما حييت عبارة سمعتها من صديق كنت أتناقش واياه في هذا الشأن ، لقد قال لي : « **انك تفكرين في الخالق لأنه موجود ، ولو لم يكن موجوداً ما استطعت أن تفكري فيه ، لأن أي مخلوق لا يستطيع أن يفكر في شيء لا وجود له** » .

وقد يقال : اننا نستطيع أن نتصور بخيالنا أشياء لا وجود لها ، فنستطيع – مثلاً – أن نتخيل وجود رجل له خمس سيقان ، أو نتخيل صوراً لكائنات حية تعيش في الكواكب .

وأبلغ رد على هذا ، أن صور الأشياء التي نتخيلها لا يمكن أن تكون عناصرها كلها غير موجودة ، بل لا بد أن يكون بعضها موجوداً مرتسماً في أذهاننا ، وعلى أساسه نتصور بقية العناصر التي نتخيلها .

وعلى هذا الأساس نفسه ، لا بد لنا من أن نؤمن بوجود الله ، لأن انكار وجوده لا يتفق عقلاً مع استطاعتنا التفكير فيه .

وهذه الساعة التي أزين بها معصم يدي – مثلاً – انني لو فككت أجزاءها وأخذت اتطلع الى أجزائها الصغيرة الدقيقة ، لأيقنت ، بأن لها صانعاً ، وحسبي لتيقن وجود هذا الصانع انني أرى الساعة التي صنعها ، وإن لم أكن أراه .

والآن ، دعنا نتأمل في أي عضو من أعضاء الجسم ، وليكن العين بمحتوياتها من عدسة وقزحية وشبكية وغيرها .. اننا لا يمكن أن نقول ان هذه العين وجدت – هكذا بمحض الصدفة ، أو أن الصدفة هي التي أوجدت النظام الدقيق الذي تؤدي وظيفتها طبقاً له ، فكيف يجوز لقائل أن يقول : **إن هذا الكون الهائل الدقيق النظام ليست هناك قوة أكبر منه هي التي أوجدته ، وهي التي تنظمه .**

انني لا أستطيع بأية حال أن أقتنع بأن العجائب الكثيرة الدقيقة

التي نشهدها في الكواكب والنجوم والأفلام العديدة ، أو نبصرها في أنفسنا يمكن أن تكون وليدة الحظ أو المصادفة .

وأعود وأتساءل : كيف يمكن أن يكون هناك ذلك التعطش العام لمعرفة الخالق بين جميع الشعوب على اختلافها ، دون أن يكون هناك خالق ؟ . أكان يمكن أن نشعر بالجوع لو أننا لم نعرف الطعام ؟ .. وهذه الأحاسيس الفوارة ، والأفكار والايحاءات التي تدفعنا وتمكننا من القيام بأشياء خارجة عن قدرتنا ، هل يمكن أن تنبع الا من قوة خارجة عنا محيطة بنا ، ملازمة لنا ؟

انه لمن المستحيل عقلاً ، ألا يكون هناك أساس لذلك الايمان بالخالق ، الذي يعمر القلوب في جميع أرجاء العالم .

على أن ثمة دليلاً آخر أعده أنا برهاناً قاطعاً علٰى وجود الخالق .

وهذا الدليل مستمد من حياتي أنا .. لقد كنت ذليلة أسيرة للآثام والشرور فتخلصت من ذلك الأسر وعدت مرة أخرى مرفوعة الرأس ومنذ أصدرت كتابي الذي رويت فيه قصتي ، يكتب لي مئات القراء ، مؤكدين ان – كلماتي شجعتهم وجددت حياتهم ومنحتهم قوة مكنتهم من مواجهة متاعبهم ومآسيهم في صبر وشجاعة ، فمن أين لي هذا ؟ انني أعرف انه ليس لي من الذكاء أو درجة التعليم أو القوة ما كان يمكنني من ذلك ، لولا أن الله أعطاني هذه القوة وبث هذه الكلمات والأفكار في ذهني فأقدرني على أن أنفع بها الكثيرين . أليس هذا دليلاً

على قوة الايمان الايجابية وعلى أنني لم أكن الا أداة لقوة خارجة عني ، قوة لا أستطيع أن أراها ، ولكن حضورها معي يتجلى لي بين حين وحين ؟

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ ﴾ (١)

* * *

في عهد الإمام أبي حنيفة ظهر رجل ملحد أنكر وجود الخالق سبحانه . إنها كما نرى قصة قديمة .. إن الإلحاد «فن» في عقول الشياطين والأبالسة .. شياطين الجن وشياطين الأنس منذ بدء الخليقة .

وذهب الناس إلى أبي حنيفة .. ذهبوا يقصون عليه القصة ويطلبون منه محاصرة هذا الوباء قبل أن يستفحل خطره ..

---

(١) سورة النمل : الآيات ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ .

واتفق معهم على يوم يلتقي فيه بهذا الرجل .. وحدد ساعة اللقاء بعد صلاة العصر ليشهد الناس الفرق الواضح بين « الحقيقة » و« الدجل » .. واجتمع كل الناس .. وتصدر الملحد المجلس في انتظار بدء الحوار والنقاش ..

ولكن أبا حنيفة تأخر عن الموعد متعمداً ..

وهنا صاح الملحد متحدياً :

أين أبو حنيفة ؟ لقد خاف من هول الموقف ، وخشي أن يحضر حتى لا يفضح أمامكم في هذا المجلس .. ؟

وما كاد يجلس في مكانه حتى دخل أبو حنيفة .. فالتف من حوله الناس يسألون عن سبب تأخيره .. ووقف أبو حنيفة ليتكلم :

لقد تأخرت لأني لم أجد سفينة تحملني اليكم . كنت أقف على الشاطئ الآخر من النهر في انتظار أية سفينة أو مركب .. ومن بعيد لمحت قارباً يقف بدون قائد . فأشرت إليه باصبعي فتحرك مسرعاً بنفسه إلى أن رسا حيث أقف . ثم ركبته فتحرك كما جاء بدون مجاديف تتحرك .. وبدون قائد يوجه مسيرته الى الجانب الآخر من الشاطئ .. ؟ !

وهنا صاح الملحد غاضباً :

أيها الناس : ألم تجدوا رجلاً آخر غير هذا المجنون يناظرني ؟ هل يصدق أحد أن يتحرك قارب بنفسه ؟

أو يسير مركب بدون ملاح يقوده ويوجهه ؟

ان هذا هو عين الجنون والحمق .. وكلام سفيه لا مسحة فيه من المنطق أو الصدق ..

وهنا قال أبو حنيفة : صدقت : إن هذا ما كنت أريد أن أسمعه منك بالضبط .. فإذا كان من الجنون والسفاهة والحمق أن يقول أحد : إن قارباً يتحرك بدون قائد .. فأخبرني اذن .. كيف تتحرك النجوم والجبال والكواكب بل كيف توجد من غير خالق ... ؟ !

« فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين » .

* * *

هوت المشاعر والمدارك عن معارج كبريائك
يا حي يا قيوم قد بهر العقول سنا بهائـــك
أثني عليك بما علمت فأين علمي من ثنائك
عجباً خفاؤك من ظهورك أم ظهورك من خفائك
فجميع ما في الكون فانٍ مستمد من بقائك
بل كل ما فيه فقير مستميـح مـن عطائـك
ما في العوالم ذرة في جنب أرضك أم سمائك
إلا ووجهتها إليك بالافتقـــار إلى غنـائـك

في جحيم الالحاد

الالحاد أنانية وإفلاس . لأنه أولاً وقبل كل شيء فرار من المسئولية التي يفرضها الإيمان والعقل والحكمة . وأشقى الأشقياء على ظهر هذه الأرض إنسان لا يعرف سر الحياة والكون ولا حكمة الخالق في الوجود .

جمال الدين الأفغاني

يقول الاستاذ محمد الغزالي :

لقيت نفراً من الشبان الملحدين ـ وهم للأسف منتشرون في هذه الأيام انتشار الحلفاء والحشائش الضارة في أرض لا صاحب لها ـ وحاورت بعضهم أبغي استكشاف ما في نفسه . فوجدت فكرتهم عن الله أشبه بفكرة اللقيط عن أبيه لا يعرفه ولا ينصفه ..

ووجدت جمهرتهم تفكر بهذا الإله عن تقليد أعمى وغرور بليد .. فهم يحسبون أن العلم والإيمان ضدان . وأن الارتقاء الثقافي يصحبه حتماً إقصاء الدين عن الطريق ..

ثم هم يرون أنفسهم ـ وإن لم يدرسوا شيئاً طائلاً من علوم المادة ـ قد أصبحت لهم مكانة العلماء الذين فجروا الذرة . فهم يصطنعون نظرتهم نفسها عن الحياة وخالقها ـ كما تُحكى لهم لا كما هي على حقيقتها ـ ومن ثم فهم يتبعون الأخس الأخس ، من قصور في العلم وسوء في التقليد ...

أعرف واحداً من هؤلاء ما نظر يوماً في مرصد للأفلاك ، ولا دخل

يوماً معملاً للكيمياء ولا غمس يده في تجربة خطيرة من التجارب الكونية ، ومع هذه الجهالة فهو ملحد ، لأنه من العلماء والعلماء لا ايمان لهم إلا بالمادة . .

ويمكنك أن تضم إلى هؤلاء الأغرار طائفة انصاف المتعلمين . وهي طائفه عرفت بعض الحق وجهلت بعضه الآخر . ولم تتريث لتستكمل معرفتها ، بل أصدرت حكمها الحاسم على ضوء ما عرفت فقط . وتصور كيف تكون فوضى التقاضي لو أن القضاة أصدروا حكمهم بعد الاستماع لنصف روايات الخصوم ونصف دفاع المحامين ؟ كذلك فعل أولئك الملحدون .. فقد أعلنوا كفرهم بعد أنصبة محدودة من الدراسة التي نقلت إليهم بعض خصائص الأشياء وكشفت لهم بعض آفاق الوجود وحكت لهم بعض فصول القصة .

وهذا النوع من الكفر أعقد من صاحبه الأول لأنه أوغل في باب الغرور والتقليد .

قال (فرانسيس بيكون) : (إن قليلاً من الفلسفة يجنح بالعقل إلى الالحاد ولكن التعمق في الفلسفة خليق أن يعود بالمرء إلى الدين) .

وقال (ديل كارنيجي) : (إني لأذكر الأيام التي لم يكن للناس حديث فيها سوى التنافر بين العلم والدين .. ولكن هذا الجدال انتهى إلى غير رجعة) .

إن الالحاد إفلاس في القيم والحياة .. هل تريد أن تتأكد ؟ تعال معي لنقرأ سوياً ما كتبه الاستاذ محمد زكي عبد القادر على لسان

واحد من هؤلاء الملاحدة المفلسين :

« إنني أعيش في خوف دائم ، في رعب من الناس والأشياء ، ورعب من نفسي ، لا الثروة أعطتني الطمأنينة ، ولا المركز الممتاز أعطانيها ولا الصحة ، ولا الرجولة ، ولا المرأة ، ولا الحب ولا السهرات الحمراء ... ضقت بكل شيء ، بعد أن جربت كل شيء ..

إنني أكره نفسي ، أخاف من نفسي ، ألا ترى الأشباح من حولي ؟ ألا تحس بالخوف يفتح فمه لكي يلتهمني ؟ مم هذا ؟ الهموم ؟ ليست لي هموم ، إن همي الأكبر هو هذه الدنيا.المال عندي ، المركز والجاه ، والصحة ، والمرأة والجمال ، و ... كل شيء بين يدي ، كل شيء ملكي لماذا أنا خائف إذن ؟ مم أخاف ؟ ؟

من الله ؟ كلا ، إن الله لا وجود له في حياتي ، مم إذن أخاف ؟ من المجتمع ؟ إني أكرهه وأحتقره وأهزأ به ، من أين يأتيني الخوف إذن ؟ من الموت ؟ ربما ، ولكني لا أبالي به ، ولا أشعر أنني أخافه ، انه عندي مجرد ظاهرة ، من أين يأتي الخوف إذن ؟

ربما كنت خائفاً لأنه لا يوجد شيء أخاف منه ، ربما كنت خائفاً لأن كل شيء بين يدي ، محضر لدي ، إن الامتلاء كالجوع كلاهما يخيف .. لو كان المال ليس حاضراً لدي لتمنيته وسعيت من أجله وأنفقت يومي لكي أبلغه وأسعى من أجله لو كان المركز المحترم بعيداً عني لبذلت جهدي لكي أبلغه ، ولكن كل شيء موجود : المال ، المرأة ، كل ما يسعى الناس إليه ويفكرون فيه ميسر لي : ليس لي ما

يشغلني أو يتعبني الحصول عليه . حياتي فضاء .. همومي ؟ لا هموم لي ... إذن لا بد أن أخاف ، لأنني لا أجد ما أخاف منه ، لا بد أن أخاف من المجهول الذي لا أعرفه ...

إنني تائه في الحياة لأنني بلغت قمة الحياة ... إن الحياة الآن هي عدوي .. ليس ما في الحياة ، فكله ملكي .. إنني أشعر أنها تسخر مني ، وتقف في وجهي كالغول ... عرفت الآن مم أخاف ... إني أخاف من الحياة ذاتها .

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

« إن الملحد فقير حقاً ، لأنه محروم من كل عاطفة .. مجرد من كل أمل .. حبيس في لحظة عابرة من لحظات الحياة ، يهوي بعدها هوياً إلى العالم الأبدي ... فهو من أجل هذا حاقد على ما يعرف عند المؤمنين باسم (الاله) .. إن الملحد ليتنزى قلبه حقداً على الله .. لم خلقه ـ إن كان هو الخالق حقاً ـ ؟ ولِم ألقى به في هذه الحياة أو (المزبلة) ؟ كما يحلو (لسارتر) أن يسميها . ولم سلط عليه الآلام منذ ولادته إلى أن يموت ، ويلقى في التراب تحت مواطىء الأقدام ؟ هكذا ينظر (الملحد) إلى الله وهكذا يرى جناية الله عليه فكيف يحبه ؟ وبالتالي كيف يؤمن به ؟ والإيمان حب وإجلال وتقديس .

فالإنسان حين يجمد وجوده في قوالب المادة ، ويتخلى عن أشواق روحه ، ويتناسى أو ينسى وجودها في كيانه ـ حين يكون على تلك الحال تبدو الحياة في عينيه ضيقة مظلمة ، وتظهر له صورة الأشياء حزينة

كئيبة كالحة ، تطل منها أشباح مزعجة تبعث إليه القلق ، والخوف ، فتضاعف آلامه ، وتكثر مصائبه ، ويتخلق له من الخير شر ، ويتولد له من الشر شرور . فإذا الحياة عنده بلاء ، وعذاب وشقاء ..

وهنا لا يجد الملحد من يصفي معه حساب هذه الآلام ، وهذا الشقاء ، إلا من يعرف عند المؤمنين باسم (الاله) .

وإذن فالإله ــ عند هذا الإنسان الضال الشقي ــ هو سبب شقائه وتعاسته ــ فليكن بينه وبين هذا الإله قطيعة وجفاء .. ثم أكثر من القطيعة ومن الجفاء .. ليكن حرب وتجديف .. وقد كان .

أتريد مشهداً من هذه المشاهد التي يعلن فيها بعض هؤلاء السفهاء حربهم على الله ؟

لا بأس .. فالله سبحانه منزه عن أن يضار بهذا الهذيان المجنون وإذن فاستمع إلى (جيمس تمسون) ــ وهو فيلسوف أمريكي معاصر .. يقول هذا الشقي المسكين :

من هو أكثر شقاء وغماً في ذلك المكان الحزين ؟
انني أعتقد انه أنا .

كلام طيب .. هو شقي حقاً ، وحياته كلها غم ونكد .. ودنياه حزن وآلام ليكن ذلك شأنه ، وتلك تصوراته ومفاهيمه .. إنه يغني على ليلاه .

واسمع بقية القصة .. يقول :

ولكني أفضل أن أكون على هذا الوضع من التعاسة والشقاء ،
على أن أكون هذا الذي أوجد مثل هذه المخلوقات من قدرته ومشيئته .

ثم لا يقف هذا المجنون عند هذا الحد من الهذيان .. بل يظل يهذي ، ويعوي كما تعوي الكلاب .. فيقول :

يا موجد الخطايا والخطوب
إنني أقسم : ان الأشياء لم تطو ولم تنشر بقوتك
ولا أن كل الأضرحة قد بنيت لعظمتك
أو ليس لي أن أفترض أن من الخطأ الفاحش المشين أن يكون في مثل هذا الكون رجال من هذا النوع ؟ .

سم هذا اللغو ما شئت .. قل انه فلسفة ، أو قل انه علم ، أو قل انه تخريف وهذيان .. ولكنه على أي حال لسان حال الماديين من كل مذهب وفي كل أمة وجيل[1] ...

مسكين هذا الإنسان .. لو عرف حدود نفسه لما تجاوزها إلى متاهات التهلكة والطيش والضياع ! لكنه مغرور وطائش فكان طبيعياً أن يهلك . ويضيع . ويلحد .. !

---

(١) الله والإنسان . عبد الكريم الخطيب .

وَاحَةُ الإِيمَان

عجباً لأمر المؤمن ان أمره كله خير له . إن اصابته سراء شكر فكان خيراً له . وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

محمد رسول الله

يقول ديل كارينجي :

لقيت (هنري فورد) قبل وفاته ، فتوقعت أن أرى عليه سيماء رجل منهك القوى من فرط الجهد الذي بذله في إنشاء مؤسسة تجارية من أضخم المؤسسات في العالم ، غير أني فوجئت حين وجدته على درجة كبيرة من الرزانة والهدوء ، وكأنه آية في الاتزان والطمأنينة . برغم بلوغه الثامنة والسبعين من عمره .. فلما سألته : هل عانى من القلق شيئاً ؟ أجاب : كلا ، فإني أعتقد أن الله ــ سبحانه ــ قدير على تصريف الأمور ، وإنه ــ تعالى ــ في غير حاجة إلى نصيحة مني ولهذا فأنا أترك له تصريف أموري بحكمته جل شأنه . فعلام إذن يتولاني القلق ؟ ؟ .

ويقول أيضاً : أعرف رجالاً ينظرون إلى الدين نظرتهم إلى شيء مقصور على النساء والأطفال والوعاظ ، ويتباهون بأنهم (رجال) يسعهم أن يخوضوا المعارك بلا سند ولا معين .

فما أشد الدهشة التي تتولاهم حين يعلمون أن معظم (الرجال)

أعني الأبطال المشهورين يضرعون إلى الله كل يوم أن يؤازرهم ويعاونهم .

خذ مثلاً البطل (جاك دمبسي) لقد أخبرني بأنه لا يأوي إلى مضجعه قبل أن يتلو صلواته ولا يتناول طعاماً حتى يحمد الله الذي وهبه إياه ، وانه لا يفتأ يردد الصلوات والدعوات في أثناء تدربه ، على الملاكمة ، وقبل كل مباراة يخوضها ..

وحدثني (ادوارد أتشسون) المدير الأعلى لشركة جنرال موتورز (ووزير خارجية أمريكا الأسبق) أنه كان يصلي ويبتهل إلى الله أن يهبه الحكمة والسداد ليلاً ونهاراً .

وعندما كان (ايزنهاور) في طريقه إلى (أوربا) طائراً ، ليتولى قيادة جيوش الحلفاء في الحرب الأخيرة كان الشيء الوحيد الذي اصطحبه معه هو الكتاب المقدس ..

وقال لي الجنرال (مارك كلارك) : انه كان يقرأ الكتاب المقدس خلال سني الحرب كل يوم ، ثم يركع على ركبتيه ويدعو الله .

لقد أدرك هؤلاء الأبطال أنهم ليسوا وحدهم في الحياة ، وأنهم فقراء إلى هذا الإله القادر الرحيم كي يصحبهم في دنياهم بتوفيقه ورعايته ، كما تفضل عليهم وهم في عالم الغيب ـ بنعمة الإيجاد والخلق ... ولهذا كان نبي الاسلام العظيم إذا حزبه أمر فرغ إلى الصلاة .

وحقيق بالناس أن يفزعوا إلى الله كلما حزبتهم شدة ، أو رابتهم أزمة ، فمن غيره ـ جل شأنه ـ يستطيع سد خلتهم وإشباع نهمتهم ورد طمأنينتهم .

ويقول (ديل كارنيجي) : ترى لماذا يجلب الإيمان بالله والاعتماد عليه ــ سبحانه وتعالى ــ الأمان والسلام والاطمئنان ؟ ..

سأدع (وليم جيمس) يجيب عن هذا السؤال : إن أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكر قط هدوء القاع العميق . ولا تقلق أمنه .. وكذلك المرء الذي عمق إيمانه بالله ، خليق ألا تعكر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة .. فالرجل المتدين حقاً عصي على القلق، محتفظ أبداً باتزانه مستعد دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتي به الأيام من صروف .

فلماذا لا نتجه إلى الله إذا استشعرنا القلق ؟ .. ولماذا لا نربط أنفسنا بالقوة العظمى المهيمنة على هذا الكون ؟

يقول الدكتور ألكسي كاريل مؤلف كتاب «الانسان ذلك المجهول» :

لقد رأيت بوصفي طبيباً ــ كثيراً من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليماً تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم إن الصلاة كمعدن [الراديوم] مصدر للاشعاع ومولد ذاتي للنشاط . إننا نربط أنفسنا حين نصلي بالقوة العظمى التي تهيمن على الكون . ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبساً منها . بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تز يد قوتنا ونشاطنا ولن تجد أحداً يضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج .

لقد تقدم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما في هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : (إن العلم يستطيع القضاء على كل مرض ، غير الموت والشيخوخة) .. ولكن الأمراض تكثر وتتشعب ،

وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها (الأمراض العصبية) التي هي نتائج أعراض التناقض الشديد الذي يمر به الفرد والمجتمع .

لقد حاول العلم الحديث أن يغذي كل الجوانب المادية في الجسم الإنساني ولكنه فشل في تغذية الشعور ، والأماني والإرادة ، وكانت حصيلة ذلك جسماً طويل القامة ممتلىء النواحي ، ولكن الجانب الآخر من الجسم ، وهو أصل الإنسان ، أصبح يعاني من أزمات لا حد لها .

لقد أكدت احصائية : أن ثمانين في المائة من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن الأعصاب ، من ناحية أو أخرى . ويقول علم النفس الحديث : إن من أهم جذور هذه الأمـراض النفسية : الكراهية ـ والحقد ـ والجريمة ـ والخوف والارهاق ـ واليأس ـ والترقب ـ والشك ـ والاثرة ـ والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأمراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله .

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقيناً جباراً ، حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد في سبيل الله من أجل هدف سام أعلى ، ويغض بصره عن الاهداف الدنيئة القذرة .

إن الإيمان بالله يعطي الإنسان محركاً هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة التي عبر عنها (السير وليام أوسلر) بقوله : (انها قوة محركة عظيمة ، لا توزن بأي ميزان ، ولا يمكن تجربتها في المعامل) .

إن هذه العقيدة هي سر الصحة النفسية الموفورة ، التي يتمتع بها

أصحابها وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهي إلا بالأمراض، أقساها وأعتاها .

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود في الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم في نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه الأمراض .. وهذه الظاهرة تثير شعوراً كئيباً بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا في الميدان الأخير ، ولذلك أكبوا على الميدان الثاني ، يسترون خيبتهم ، ويظهرون بطولتهم أمام العالم . ! ! !

وإلى ذلك أشار أحد العلماء قائلاً : (ان علماء الطب النفسي يبذلون كل جهودهم في كشف أسرار القفل الدقيقة ، الذي سوف يغلق علينا كل أبواب الصحة .)

فالمجتمع الجديد يسير في اتجاهين في وقت واحد ، فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكماليات المادية ، على حين يتسبب ـ لتركه الدين ـ في خلق أحوال تجعل من الحياة جحيماً .. انه يعطيك دواء الشفاء من الفم ، ويحقنك السم في العضل .

وسوف أنقل هنا شهادة لهذه الظاهرة رواها الدكتور بول أرنست أدولف ، يقول :

(تعرفت أثناء دراستي بالكلية الطبية على التغييرات التي تطرأ على أنسجة الجسم بعد الاصابة بالجراح ، وشاهدت أثناء التجارب بالمنظار المكبر أن أعراضاً محدودة تطرأ على هذه الأنسجة ، مما يؤدي إلى

اندمال الجروح وشفائها ، وعندما أصبحت طبيباً بعد اتمام دراستي كنت جد مقتنع بكفاءتي وأنني أستطيع أن احقق نتيجة موفقة بالتأكيد باستعمال الوسائل الطبية اللازمة ، ولكن سرعان ما أصبت بصدمة كبيرة ، حيث فرضت علي الظروف أن أشعر أنني أعرضت عن أهم عنصر في علم الطب ، ألا وهو : (الله) .

(كانت بين المرضى الذين كنت مشرفاً على علاجهم في المستشفى ، عجوز في السبعين من عمرها ، أصيب أعلى فخذها بصدام ، وأكدت صور الأشعة أن أنسجة جسمها تلتئم بسرعة ، فقدمت لها تهنئاتي لسرعة شفائها ، وأشار لي كبير الجراحين : أن أطلب منها العودة إلى بيتها بعد أربع وعشرين ساعة ، لأنها استطاعت أن تمشي دون أن تستند إلى شيء ...

وكان ذلك يوم أحد ، حين جاءت ابنتها تزورها على عادتها الاسبوعية فقلت لها : إن والدتك تتمتع بصحة جيدة الآن ، وعليك أن تحضري غداً لترافقيها إلى البيت . ولم تلفظ الفتاة بشيء أمامي ، بل توجهت إلى أمها ، وقالت لها : إنه تقرر بعد مشورة زوجها انهما لن يستطيعا تدبير عودتها (الأم) إلى بيتهما ، وخير لها الآن أن تنظم لها سكناً باحدى دور العجزة .

وبعد بضع ساعات مررت بسرير العجوز ، فشاهدت أن انهياراً سريعاً يطرأ على جسمها ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى ماتت العجوز ، لا بسبب فخذ مكسور ، بل بسبب قلب مكسور .

وقد حاولت أن أقوم بجميع الاسعافات اللازمة لانقاذها ، ولكن حالتها لم تتحسن . كانت عظام فخذها المكسورة قد تحسنت كثيراً ، ولكنني لم أجد علاجاً لقلبها المكسور أعطيتها كل ما عندي من الفيتامينات والمعادن ، ووسائل التئام العظم المكسور ، ولكن العجوز لم تستطع أن تنهض مرة أخرى ، لقد انجبرت عظامها دون شك ، وكانت تملك فخذاً قوية ، ولكنها لم تقو على الحياة ، لأن الزم عنصر لحياتها لم يكن الفيتامينات ، والمعادن ولا انجبار العظم ، وانما كان (الأمل) ، الأمل في أن تعيش على نحو معين ، فمتى ذهب الأمل في الحياة ، ذهبت معه الصحة .

هذا المثال يعطينا صورة عن التناقض الذي يعاني منه العالم في كل جانب من جوانب حياته ، فالعالم يحاول اليوم بكل قوة أن تمحى الأحاسيس والمشاعر الدينية من قلوب الناس ، وهو في هذه المحاولة يسعى إلى نهضة الإنسان ، متجاهلاً (الروح) عنصره الأصلي .

ومن نتائج هذه المحاولة أن الطب يستطيع أن يجبر عظام فخذ مكسورة ، ولكن حرمان الإنسان من العقيدة الإلهية يفضي به إلى الموت رغم كون جسمه في صحة جيدة .

لقد دمر هذا التناقض الإنسانية تدميراً ، فالأجسام تحت الأثواب البراقة أحوج ما تكون إلى الهدوء والسعادة الحقيقيين ، والابنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة ، والمدن المتلألئة ببريق الحضارة مصابة بالدسائس الداخلية وعدم الثقة ، والمشروعات الضخمة تبوء بالفشل نتيجة لخيانة

القائمين بها ... لقد أصبحت الحياة غير مرغوب فيها رغم التقدم المادي الهائل . وكل هذا يرجع إلى حرمان الإنسان من نعمة الإيمان بالله لقد حرمنا أنفسنا من المنبع والأساس الذي هيأه لنا خالقنا ومالكنا ..

إن سبب الأمراض النفسية ، التي أشرت إليها ، حقيقة واضحة جلية اعترف بها علماء النفس ، وقد لخص عالم النفس الشهير (البروفسور يانج) تجاربه عنها في الكلمات التالية :

(طلب مني أناس كثيرون ، من جميع الدول المتحضرة ، مشورة لأمراضهم النفسية في السنوات الثلاثين الأخيرة . ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى ـ الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم ، وهو ما بعد ٣٥ سنة ـ إلا الحرمان من العقيدة الدينية ، ويمكن أن يقال : أن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر ، ولم يشف أحد من هؤلاء المرضى إلا عندما استرجع فكرته الدينية .

يقول سير ا . س . بودلي [١] .

في عام ١٩١٨ وليت ظهري للعالم الذي عرفته طيلة حياتي ، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية حيث عشت بين الأعراب ، في الصحراء ، وقضيت هناك سبعة أعوام ، أتقنت خلالها لغة البدو ، وكنت أرتدي زيهم ، وآكل من طعامهم ، واتخذ مظاهرهم في الحياة وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً ، وأنام كما ينامون في الخيام ، وقد تعمقت في دراسة

---

(١) R.V C. Bodley «wind ın the sahare»

الاسلام ، حتى انني ألفت كتاباً عن محمد (ص) عنوانه « الرسول » ، وقد كانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي وأحفلها بالسلام ، والاطمئنان ، والرضا بالحياة ..

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق . فهم بوصفهم مسلمين ، يؤمنون بالقضاء والقدر ، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان ، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً .. فهم لا يتعجلون أمراً ، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقاً على أمر ، يؤمنون بأن (ما قدر يكون) وأن الفرد منهم (لن يصيبه إلا ما كتب الله له) . وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي ، كلا ؟

ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه : هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط ، ورمت بها وادي « الرون » في فرنسا .. وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة ، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون ولكن العرب لم يشكوا اطلاقاً ، فقد هزوا أكتافهم ، وقالوا كلمتهم المأثورة « قضاء مكتوب » .

لكنهم ما أن مرت العاصفة ، حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير ، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها ، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء ، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى ، قال رئيس القبيلة الشيخ : (لم نفقد الشيء الكثير ، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء ، ولكن حمداً لله وشكراً ، فان

لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا ، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد) .

وثمة حادثة أخرى . فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً فانفجر أحد الاطارات ، وكان السائق قد نسي استحضار اطار احتياطي ، وتولاني الغضب ، وانتابني القلق والهم ، وسألت صحبي من الاعراب (ماذا عسى أن نفعل ؟) فذكروني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً ، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق ، ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا ، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير ، وعلمت أن البنزين قد نفد . وهنالك أيضاً لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب ، ولا فارقهم هدوءهم ، بل مضوا يذرعون الطريق سيراً على الأقدام . وهم يترنمون بالغناء ..

لقد أقنعتني الأعوام السبعة ، التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل ، أن الملتاثين ، ومرضى النفوس ، والسكيرين . الذين تحفل بهم أمريكا وأوربا . ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها ..

انني لم أعان شيئاً من القلق قط ، وأنا أعيش في الصحراء بل هنالك في جنة الله ، وجدت السكينة ، والقناعة ، والرضا ، وكثيرون من الناس يهزءون بالجبرية التي يؤمن بها الأعراب ويسخرون من امتثالهم للقضاء والقدر ..

ولكن من يدري ؟ فلعل الأعراب أصابوا كبد الحقيقة فأني إذ أعود بذاكرتي إلى الوراء .. وأستعرض حياتي أرى جلياً أنها كانت

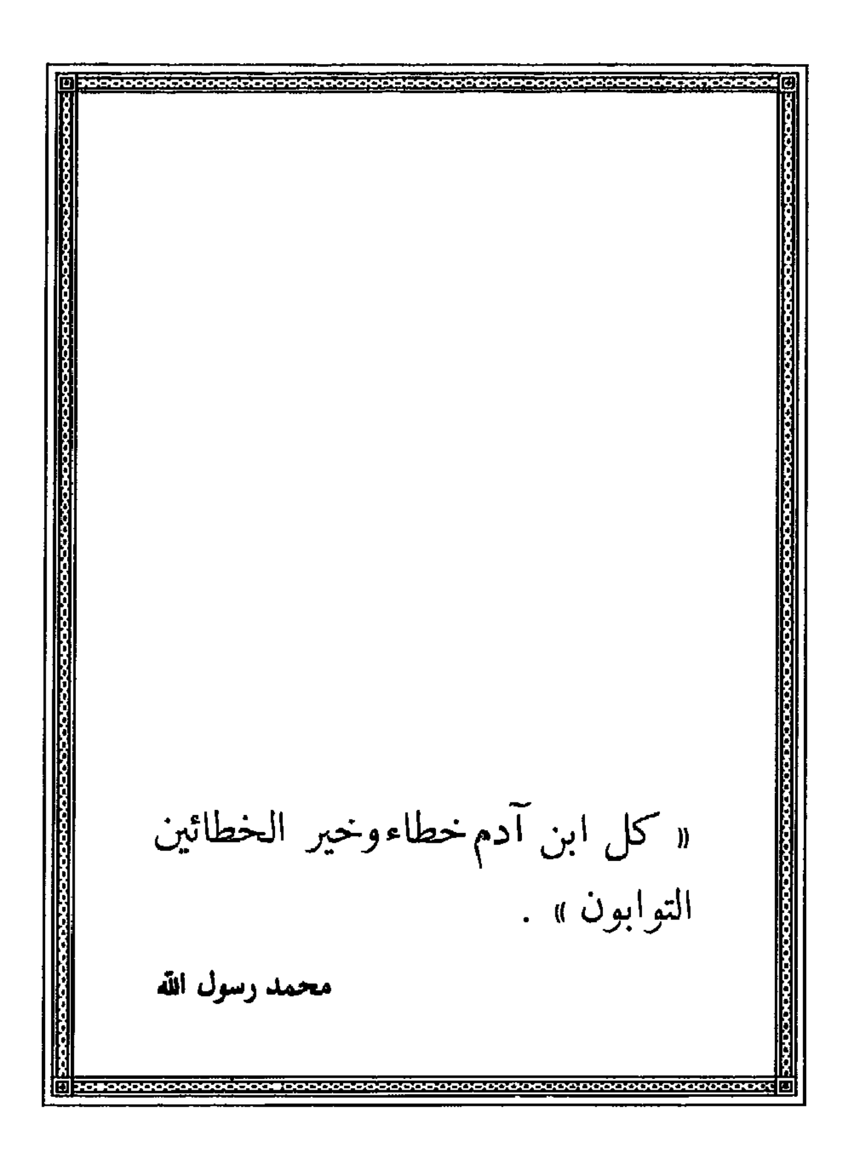
تتشكل في فترات متباعدة تبعاً لحوادث تطرأ عليها ، ولم تكن قط في الحسبان ، أو مما أستطيع له دفعاً ، والعرب يطلقون على هذا اللون من الحوادث اسم (قدر) أو « قسمة » أو (قضاء الله) ، وسمة أنت ما شئت .

وخلاصة القول انني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء ، ما زلت اتخذ موقف العرب حيال قضاء الله ، فأقابل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة ، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير ...

إنه الايمان ينبوع السعادة .. ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، ومن يؤمن بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .

صدق الله العظيم ...

تجارب واعترافات



« كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

محمد رسول الله

في أوائل الخمسينات من هذا القرن .. كانت القاهرة تموج بشتى التيارات الفكرية والسياسية ، فقد تركت الحرب العالمية الثانية بصماتها في العقل والشعور والعاطفة وظهرت في هذة الآونة صحف ومجلات تحمل شعارات غريبة وافدة ، كانت مصر كلها في مخاض فكري .. وكان الصراع عنيفاً بين مختلف التيارات والمذاهب . كان للإسلام صوت قوي وراية عالية .. وكانت الأحزاب السياسية على الجانب الآخر تقاوم في آخر معاقلها أمام هذه الموجات الجديدة العارمة .. ومن خلال التمزق الذي عاناه الشباب في هذه المرحلة ظهرت فئة جديدة تحمل راية العصيان على القيم والأخلاق الفاضلة .

كانوا يتصورون في الدين حاجزاً عن اللحاق بركب التطور والمدنية ، واعتلت ظهر هذه الموجة طائفة من اليهود الذين تظاهروا باعتناق الشيوعية ، كان زعيم هذه الطائفة « مليونيراً » اسمه « هنري كورييل » وكان هذا المليونير اليهودي رئيس أول حزب شيوعي في المنطقة وظهر في هذه المرحلة كتابان : ـ الكتاب الأول اسمه « الله

والإنسان » للدكتور مصطفى محمود والكتاب الثاني عن « الوجودية » للاستاذ أنيس منصور . لم يكن أحدهما قد اشتهر هذه الشهرة ولم يكن أحد قد سمع بهما بالمرة .. وكانت ليلة من ليالي أغسطس الحارة سنة ١٩٥١ . كنت أسير بين مجموعة من طلبة الجامعة على ضفاف النيل كانوا خليطاً من جامعة (ابراهيم) وجامعة (فؤاد) فلم يكن قد أطلق عليهما بعد اسم جامعة (عين شمس) أو جامعة (القاهرة) ورفع أحدهم ـ وكان طالباً في كلية الصيدلة ـ صوته قائلاً :

ـ هل قرأت كتاب « الله والإنسان » ؟
ـ لا .. لم أسمع بعد . بهذا الكتاب ولا مؤلفه ..

واسترسل الطالب في الحديث عن الكتاب والمؤلف ، وتسمرت أقدامنا من الدهشة وبقينا لحظات نفكر فيما احتواه هذا الكتاب من إلحاد وزندقة . ولم يكن لي في ذلك الوقت باع في تفنيد هذا النوع من الكتابة ، أو هذا الاسلوب من السفسطة ..

كنت طالباً بالسنة الأولى في الكلية ، وكنت في هذه الفترة مولعاً بالدراسات الإسلامية والأدبية ، أما حين يكون الحديث عن الالكترون و « الذرة » و « النسبية » و « الفضاء » و « التكنولوجيا » فان عقلي يقف عاجزاً عن مناقشة هذه القضايا العلمية . ونسينا الكاتب والمكتوب بعد هذه الليلة .. ومرت الأيام رتيبة في مدرجات الكلية ودراسة العقائد النسفية وتقرير أن الحقائق ثابتة والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية !

وذات يوم جاءني بعض الأصدقاء ومعهم كتاب عن « الوجودية »

وفلسفتها الالحادية المادية .. كان المؤلف اسمه أنيس منصور وكان يعمل معيداً في الكلية التي يدرس فيها هؤلاء الأصدقاء من الطلبة . كانت كلية آداب جامعة ابراهيم . وكانت هذه الكلية تقع في حي شبرا في مواجهة كلية أصول الدين .. وانتهزتها فرصة .. غداً . نعلن الاضراب ونتجه إلى كلية الآداب ونؤدب هذا المارق « أنيس منصور » . !

وشاء الله أن تتعطل الدراسة في هذا اليوم لأسباب سياسية وبقيت الدراسة معطلة لفترة طويلة كانت كافية لنسيان الكاتب والقضية .

ومرت الأيام والسنون .. وخرجنا إلى الحياة بثوب جديد من الفكر والتجربة . وطوح بنا الزمن في آفاق بعيدة من الدنيا العجيبة .. حتى كان عام ١٩٧١ ..

كنت في بيروت . وفي دار الشروق للتوزيع والنشر قدم إلي الاستاذ محمد المعلم شخصاً يبدو مرهقاً من التفكير . كان يجلس حالماً . عيناه سابحتان في بحر عميق . غير مهتم بشيء مما نتكلم ونتحدث فيه . فابتسم الاستاذ المعلم قائلاً :

ـ ألا تعرف الدكتور ؟

ـ قلت . لا ..

ـ قال : انه الدكتور مصطفى محمود .

كان الدكتور قد أصدر كتابه الجديد عن « القرآن » وكنت قد قرأت هذا الكتاب قبل أن يتم بيننا هذا اللقاء .. كانت لي بعض الاعتراضات على تفسيره للآيات إلا أنني اعتبرت عودته إلى حظيرة

الإيمان كسباً كبيراً يستحق التأييد والإعجاب . لم أكن على رأي الذين هاجموه ـ مع التسليم لهم ببعض ما قالوه ـ لأن الرجل من وجهة النظر العادلة يمر بتجربة جديدة والواجب أن نفسح له صدورنا . ثم نقول له بعد ذلك كلمتنا .

ليس هذا ما أريد أن أتحدث فيه الآن على كل حال . الذي أريد أن أقوله إن الرجل عاد إلى الله . عاد إليه في كتابه « الله » وفي « القرآن » وفي « الطريق إلى الكعبة » وفي « رحلتي من الشك إلى الإيمان » وفي هذه التجربة التي يجب أن يعيها كل انسان ..

أما الاستاذ « أنيس منصور » فقد جاء لقائي معه أيضاً صدفة وفي مناسبة بالإيمان غامرة ومضيئة . كنت في موسم الحج . وفي فندق « جدة بالاس » حيث كنت أقيم لمحت في صالون الاستقبال بالفندق رجلاً يجلس بين مجموعة من الرجال بملابس الاحرام . كان وجهه مضيئاً وابتسامته مشرقة ، وحديثه شيقاً ومشبعاً . لم أكن أعرفه معرفة شخصية . ولكني تأكدت من شخصيته بوجود الأخ مصطفى شردي رئيس تحرير جريدة الاتحاد . فكلاهما صحفي وكلاهما يعمل في مؤسسة واحدة بالقاهرة غير أني لم أشأ أن أجلس معه أو أقدم نفسي إليه حتى كان وقت الغذاء والتقينا جميعاً في غرفة الطعام .

قلت للأخ مصطفى ..

ـ أليس هذا هو الاستاذ أنيس منصور ؟

ـ قال بلى . وقدم كل واحد منا إلى الآخر .

هذا الإنسان المحرم . المتجرد . المتجه إلى الله بقلبه وعقله وروحه ..
هل هذا هو أنيس منصور الذي عرفته في « الوجودية » ملحداً ، جاحداً ؟

ماذا كان ؟ وماذا أصبح ؟[1] .

لأدع الاستاذ أنيس يتكلم عن تجربته ويدلي باعترافاته ، ثم ندعو الدكتور مصطفى هو الآخر ليقول كلمته .. وقد اخترت الدكتور مصطفى والاستاذ أنيس منصور للادلاء باعترافاتهما في هذا الكتاب . لأن كليهما كاتب له شهرة كبيرة ، وثقافة واسعة ، وتجربة سابقة ، وجماهير من القراء عريضة .

فماذا يقول الاستاذ أنيس .. ؟

ما الذي جرى لي في العشرين عاماً الماضية ؟ كثير جداً جرى لي وجرى بي . ولكن أين اتجهت ؟ إلى كل اتجاه .. فقد كنت مثل العنكبوت له عشرون عيناً ، ومشيت وراء عيوني ، يميناً وشمالاً واتجهت إلى أعلى حافي الرأس ، ونظرت إلى أسفل عالي الرأس .

وأحسست كأنني أبني بيوتاً منيعة فوق الأرض أو تحت الأرض إنها حمتني من مخاوفي فالانسان صانع مخاوفه . وكل إنسان هو شيطان نفسه .. ولكن في نفس الوقت حرمتني الماء والهواء والضوء ..

كأنني خرجت من قمقم ودخلت في قمقم أكبر ، وخرجت

---

(١) من مقالات نشرت في مجلة آخر ساعة .

لأدخل في قمقم أطول وأعرض .. وكل شيء حولي من الزجاج الشفاف . لكي أرى أوضح وأنا آمن .. ولكني عندما اقتربت من جدران القمقم تحول الزجاج إلى شيء معتم لأنني أتنفس بالقرب منه .. وبالقرب من كل جدار .. فأنا الذي أظلمت أمام عيني كل طريق للمعرفة ..

بل أكثر من ذلك أنني نظرت إلى كل شيء حولي .. ولكن لم أعرف الحجم الحقيقي للأشياء والناس .. والوزن الحقيقي لكل قيمة . لماذا ؟ لأنني كنت استخدم نظارات مختلفة الألوان والزوايا .. فبعضها يجعل الدنيا واضحة صغيرة ، وبعضها مثل التلسكوب يجعلها قريبة وبعضها مثل الميكروسكوب يجعل الصغير جداً كبيراً جداً .. ولكن ما هو الحجم الحقيقي لهذه الدنيا ؟ ما قيمتها ؟ وما ضرورتي ؟ وما أهمية أن يكون لي رأي .. ثم ما أهمية أن يبحث الانسان عن معنى وراء كل شيء ، وإذا عرف فما قيمة المعرفة .. وأيهما أفضل هذا الذي يتحول في يديه كل شيء إلى سلعة لها ثمن ولها قيمة .. وهل يستطيع الباحث عن المعنى أن يكون تاجراً ، وهل يستطيع الباحث عن الثمن أن يكون مفكراً أو فيلسوفاً ؟ .

لقد سئل الحكيم اليوناني ديوجين : أيهما أفضل عندك الرجل الحكيم أو الرجل الغني ؟

فقال : بل الرجل الحكيم ..

فقيل له : وكيف تفسر وقوف الحكماء بأبواب الأغنياء ، وعدم وقوف الأغنياء ببيوت الحكماء ؟

فقال ديوجين : لأن الحكماء يعرفون قيمة الثراء والأغنياء لا

يعرفون قيمة الحكمة .. ولكنه رأي رجل حكيم مفلس عاش عارياً ، ونام مع الكلاب . وهو سعيد بذلك .

ودار رأسي حولي ، وكأنه (ديك الريح) يتجه إلى كل ناحية .. وليس له أفق . ولا وجهة ولا قبلة . والذي ليس له هدف ، فكل الشوارع عنده سواء ..

وكانت كل الفلسفات والديانات عندي سواء .. فليس لي هدف ، وليس عندي أي أمل في شيء .. وطالت حيرتي . وزادت متاعبي . وتقلبت على كل مخدة . وتوجعت من كل سرير . وضقت بكل من يقترب مني .. فقد أحسست أن الناس كلهم مثل القنفذ شائكون وأنا عريان النفس ، مجرد الفكر ، ممزق القلب ...

وكنت أتصور انني استرحت إلى ما اهتديت إليه . وأنني أدمنت التفكير . ولأنني أدمنت لم أعد أميز بين فكرة وفكرة . ففقدت لذة الأشياء وانعدمت فوارق اللون ..

وفجأة توقفت عن الأديان . لا أعرف كيف .. ربما لأني تعبت . وربما لأنني انتقلت إلى أديان أخرى . وتوجعت أكثر .. تماماً كالذي يعتاد على الكيف أو على المخدرات ثم يوقفها كل شيء فيه يتألم . فكل شيء فيه قد اعتاد على أن يتوكأ على شيء تحت رجليه وتحت رأسه ووراء ظهره وأمام عينيه .. فالعينان تستندان إلى منظار مريح ، وأنا أعتمد على عصا ، ورجلاي تعتمدان على بساط ينسحب من تحتهما ، فانتقل دون حركة ، لأن البساط السحري هو الذي يحملني وفجأة

سقط المنظار والعصا وانسحبت المخدات وهرب البساط .. وكادت حواسي تهرب مني ..

وتراءت أمامي صور قديمة وجديدة من الماضي البعيد والحاضر الأليم والمستقبل المخيف . فالانسان لا يستطيع أن يمشي في خط مستقيم ، ولا أن يفكر في دروب مستقيمة .. فالذاكرة تروح وتجيء ، مثل موج البحر ومثل هبات النسيم .. ورأيت كأنني جيلفر في بلاد الأقزام ، ربطوني بالخيوط ولم أعرف كيف أتخلص منها .. ورأيت نفسي مثل بروميثيوس تأكل الصقور قلبي ، وأنا مخدر ، فأرى نفسي مأكولاً منهوباً وأخاف مما أرى ، وأحمد الله أنني لا أحس بشيء ..

وأخاف من هذه الفكرة .. فلا أرفع بها صوتي فيجردني الله من نعمة بلادة الحس أو انعدام الحس .. فأصرخ مع كل ضربة منقار ومع كل قطرة دم وقطعة لحم .. وتصورت نفسي ذلك الانسان الذي خطفه النسر في قصص (ألف ليلة وليلة) .. ارتفع به إلى أقصى درجات العذاب .. وانحط .

إن الإنسان لا يستطيع أن يقيس السماء بالشبر ، فان العقل الذي في حجم الشبر ، لا يستطيع أن يحيط بالله ليعرفه ويفهمه . لا عندنا عقل ، ولا عندنا علم ، ولا عندتا عمر . ولكن البشرية في ملايين السنين من عمرها سوف تعرف شيئاً ما .. فنحن لسنا إلا لحظات في عمر العقل أو محاولة الفهم عبر ملايين الملايين من الناس ، والملايين الملايين من السنين . وفي كل الحالات سوف تصدق علينا الآية الكريمة التي تقول :
(وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)

ـ بالأمس واليوم وغداً وبعد غد بملايين الملايين من السنين .
مثلاً : ما الذي تستطيع أن تقوله لطفل صغير عن نظرية النسبية .. ما الذي تستطيع أن تقوله لرضيع عن أشعة ليزر ... كيف تقولها وكيف تقنعه .. أنت لا تستطيع وهو عاجز عن الفهم .. ونحن في طفولة العقل الإنساني ..

وكتبت وصية : فقد قررت أن أنتحر مرة أخرى . واستأذنت زوجتي في شيء واحد : أن تسمح لي أن أموت تحت كتبي .. وأن تكرمني باحراقها معي .. فهذه الكتب لم تنفعني وعندما احترق أنا وكتبي أكون أنا الحريق والمحترق . تكون كتبي هي الوقود ويكون شحمي هو الزيت .. وأصبح كما قال الشاعر كامل الشناوي :

حطمتني مثلما حطمتها فهي مني وأنا منها شظايا

ودارت بيني وبين كثيرين مناقشات . ومللت أسلحتي في النقاش ومن التلاعب بالأفكار ، ووجدتني أتحول من أحد حيوانات السيرك ، إلى حيوان يمشي على الأرض .. تحولت من حمامة تطير ، إلى دجاجة على الأرض .. واكتشفت أن بيتي مصنوع من أوراق الكوتشينة : أرقام وصور .. ولكنه ليس بيتاً يريح ، يصلح لأن يحميني ويقيني ويضفي الأمان على نفسي ، وعلى أيامي وكانت زوجتي أبسط إيماناً وأعمق إحساساً بكل الحقائق المعقدة التي عجزت عن الإيمان بها . وكان القليل من المعرفة الدينية يريحها .. فهي اختارت الإيمان ، لأنها اختارت الدين ... أو اختارت الدين وأكملته بالإيمان .. هل هذا ممكن ؟ ممكن جداً عند كثيرين . فماذا أفدت لا شيء ؟ ماذا أرحت ؟ لا نفسي

ولا أحداً .. ولا أعرف حقيقة من أين أتاها هذا الصفاء الروحي والشفافية الدينية ؟ انها تعتمد على وجدانها . على ما تحسه مباشرة.على صلتها بالله ، ووجوده الدائم معها ولها . كيف ؟ لا أعرف . ولكنها مؤمنة بذلك ، مستريحة إلى ذلك . وطالت مناقشاتي وحيرتي ..

وفجأة كان كل ما في نفسي وعقلي قد تعب . أو قد أضيء فجأة .. ورأيت ما لم أر . وسمعت ما لم أسمع ، شيء رطب مضيء مريح منعش في داخلي . انفتح شيء .. أطل شيء .. امتلأت بشيء .. تسرب من داخلي شيء . لا أعرف ما هذا الشيء ولا أعرف كيف أسميه .. ولكنه هناك .. أو هنا .. وعدت أقرأ القرآن ، وكثيراً ما قرأت . وعدت أقرأ الحديث .. وسراً وكأنني أتستر على جريمة ، قرأت كتاب (عبقرية محمد) للعقاد و (محمد) للدكتور حسين هيكل و (محمد)لتوفيق الحكيم و (على هامش السيرة) لطه حسين .. وسيرة ابن هشام ، وماكتبه المستشرقون .. ولا أقول إن هذه القراءة كانت عملاً واعياً وانما وجدت نفسي مأخوذاً مسحوباً منجذباً أو مجذوباً .. وفهمت ما لم أكن أفهم وعرفت ما لم أكن أعرف .. واكتشفت أنني أجهل الكثير جداً .. واهتديت إلى الإسلام أبسط الأديان وأكثرها تجريداً وأعمقها فهماً للانسان والعلاقات الإنسانية ، وأن تشريعه شامل .. وأن كل شيء فيه لم يقع له تحريف .. كل شيء باق منذ ١٤ قرناً .. ولم أشأ أن أقول هذا لأحد ، ولكن ماذا لو قلت ؟ لم أجد إجابة عن هذا السؤال ، هل إذا وجدت إجابة عن السؤال أكتب ذلك ؟ نعم وما الذي يمنعني .. انني كتبت عشرات السنين ومشى ورائي مئات الألوف من الشبان واتجهت

بهم إلى كل وجهة إلا الدين .. فلم يكن الدين همي .. فقد كنت مشغولاً بكل الأديان .. أو بالأخلاقيات الإنسانية العامة في كل العصور . ومن العدل إذا فهمت أن أقول . وإذا اهتديت أن أهدي .. وإذا آمنت أن أدعو للإيمان ، كما دعوت إلى أشياء كثيرة ، وفي حرارة الشباب ومنطق الرجوله وتخصص الفيلسوف ..

وجاءت فكرة أداء العمرة . ومن غير تفكير وافقت . وبعد أن وافقت رحت أفكر ، كيف أفعل ذلك ؟ ثم ماذا بعد ذلك ؟ وماذا يقال ؟ ومن الذي يقول ؟ وماذا يخيفني او يحرجني في ذلك ؟

وفي الطائرة ، ومع الناس ومع أصوات الملبين أحسست أنني في مسجد في السماء . وأن أصوات الناس وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبيك .. شيء من دفء ثم حرارة ثم كهربة . ثم ارتعاشة ثم زلزلة ، ولم أشعر بصوت المحركات ولا بالوقت .. وفجأة نزلت الطائرة في مطار جدة عند الفجر .. ولم أسأل نفسي ولماذا عدم اللبس . ووجدت أنه سؤال لا معنى له .. نحن لا نسأل أنفسنا لماذا نرتدي البيجاما في البيت ، والبنطلون خارج البيت والكرافتة في الرسميات والمايوه في الصيف ، ونتعرى أمام الطبيب دون مناقشة .. فهذه الملابس لها معان كثيرة .. فنحن نتجرد من كل شيء . نقف أمام الله عراة .. مجردين من الملابس ومن الشهوات ومن المخاوف أيضاً .. ونتساوى جميعاً ، من يجد الثوب ومن لا يجده .. وفي ذلك طاعة وامتثال .

وأعتقد أنني كنت مثل سفن الفضاء التي تعرضت بطاريتها لأشعة

الشمس فامتلأت لقد امتلأت بكل ما هو مريح . ومضيء . وأنني اغتسلت من أشياء كثيرة ، وأن رواسبي قد أزيلت ، وأن هوائي الملوث قد نقي تماماً .. وأن دمي قد نقل خارجي ، وان دماً جديداً يجري في عروقي .. كأنني ولدت .. أو تولدت من شيء آخر .. أو من كائن آخر .. وأنني عدت طفلاً في كعبة المعرفة الإنسانية ، وجنينا في بطن الدين .. وأنني في حاجة إلى (حبل سُرى) أتغذى منه ..

كأن السائق الذي يسوق حياتي ، كان مخموراً مسطولاً قلقاً ، وجاء سائق جديد ، يداه أكثر استقراراً ، وقدماه أكثر اتزاناً ، والطريق أمامه واضح ، والهدف أقرب .. كأنني لست أنا ...

ولا أعرف كيف أعبر عما أعرف ، وعما سوف أعرف . لا أعتقد أنني قادر على ذلك . فأنا حديث العهد بكل المعاني الدينية ، وحديث المعرفة بنفسي الرضية ..

وتذكرت الفنان الكبير جوجان عندما كتب في (يومياته الشخصية) عندما هرب إلى جنات المحيط الهادي ..

لقد كتب يقول : أريد أن أحب ولكني لا أستطيع .. أريد ألا أحب ، ولكني لا أستطيع .. ولكن من المؤكد أنني سوف أستطيع .. أن أحب » .

والآن ... جاء دور الدكتور مصطفى محمود فماذا يقول هو الآخر عن تجربته واعترافاته ؟

« كان ذلك من زمن بعيد لست أذكره .. ربما كنت أدرج من

الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة وربما قبل ذلك .. في مطالع المراهقة .. حينما بدأت أتساءل في تمرد[1] :

تقولون أن الله خلق الدنيا لأنه لا بد لكل مخلوق من خالق ولا بد لكل صنعة من صانع ولا بد لكل وجود من موجد .. صدقنا وآمنا .. فلتقولوا لي إذن من خلق الله .. أم أنه جاء بذاته .. فإذا كان قد جاء بذاته وصح في تصوركم أن يتم هذا الأمر .. فلماذا لا يصح في تصوركم أيضاً أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق وينتهي الاشكال .

كنت أقول هذا فتصفر من حولي الوجوه وتنطلق الألسن تمطرني باللعنات وتتسابق إلي اللكمات عن يمين وشمال .. ويستغفر لي أصحاب القلوب التقية ويطلبون لي الهدى .. ويتبرأ مني المتزمتون ويجتمع حولي المتمردون .. فنغرق معاً في جدل لا ينتهي إلا ليبدأ ولا يبدأ إلا ليسترسل .

وتغيب عني في تلك الأيام الحقيقة الأولى وراء ذلك الجدل .. أن زهوي بعقلي الذي بدأ يتفتح وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التي انفردت بها .. كان هو الحافز دائماً ... وكان هو المشجع .. وكان هو الدافع .. وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب .

لقد رفضت عبادة الله لأني استغرقت في عبادة نفسي وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي وبداية الصحوة من مهد الطفولة .

---

(١) رحلتي من الشك إلى الإيمان .. مصطفى محمود .

كانت هذه هي الحالة النفسية وراء المشهد الجدلي الذي يتكرر كل يوم .

وغابت عني أيضاً أصول المنطق وأنا أعالج المنطق ولم أدرك أني أتناقض مع نفسي إذ أعترف بالخالق ثم أقول ومن خلق الخالق فأجعل منه مخلوقاً في الوقت الذي أسميه فيه خالقاً وهي السفسطة بعينها !

واحتاج الأمر إلى ثلاثين سنة من الغرق في الكتب وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس وإعادة النظر ثم إعادة النظر في إعادة النظر .. ثم تقليب الفكر على كل وجه لأقطع الطريق الشائكة من « الله والإنسان » إلى « لغز الحياة » إلى « لغز الموت » إلى ما أكتب اليوم من كلمات على درب اليقين .

لم يكن الأمر سهلاً . لأني لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذاً سهلاً .

ولو أني أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل ... ولقادتني الفطرة إلى الله .. ولكني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء وضعف صوت الفطرة حتى صار همساً وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغروراً واعتداداً .. والعقل معذور في إسرافه إذ يرى نفسه واقفاً على هرم هائل من المنجزات وإذ يرى نفسه مانحاً للحضارة بما فيها من صناعة وكهرباء وصواريخ وطائرات وغواصات وإذ يرى نفسه قد اقتحم البر والبحر والجو والماء وما تحت الماء .. فتصور نفسه القادر على كل شيء وزج نفسه في كل شيء وأقام نفسه حكماً على ما يعلم وما لا يعلم .

وكانت الصيحة التي غمرت العالم هي .. العلم .. العلم .. ولا شيء غير العلم .

وحول أبطال الغرب وعبقرياته كنا ننسج أحلامنا ومثلنا العليا .. حول باستير وماركوني ورونتجن وأديسون .. وحول نابليون وابراهام لنكولن .. وكرستوفر كولومبس وماجلان .

كان الغرب هو التقدم .

وكان الشرق العربي هو التخلف والضعف والتخاذل والانهيار تحت أقدام الاستعمار .

وكان طبيعياً أن نتصور أن كل ما يأتينا من الغرب هو النور والحق .. وهو السبيل إلى القوة والخلاص .

ودخلت كلية الطب لأتلقى العلوم بلغة انجليزية وأدرس التشريح في مراجع انجليزية وأتكلم مع أساتذتي في المستشفى باللغة الانجليزية .. ليس لأن انجلترا كانت تحتل القنال لكن لسبب آخر مشروع وعادل .. هو أن علم الطب الحديث كان صناعة غربية تماماً .. وما بدأه العرب في هذه العلوم أيام ابن سينا كان مجرد أوليات لا تفي بحاجات العصر .

وقد التقط علماء الغرب الخيط من حيث انتهى ابن سينا والباحثون العرب ثم استأنفوا الطريق بامكانيات متطورة ومعامل ومختبرات وملايين الجنيهات المرصودة للبحث فسبقوا الأولين من العرب والفرس والعجم وأقاموا صرح علم الطب الحديث والفسيولوجيا والتشريح والباثولوجيا وأصبحوا بحق مرجعاً .

وتعلمت مما تعلمت في كتب الطب .. النظرة العلمية .. وأنه لا يصح إقامة حكم بدون حيثيات من الواقع وشواهد من الحس .

وأن العلم يبدأ من المحسوس والمنظور والملموس وأن العلم ذاته هو عملية جمع شواهد واستخراج قوانين .

وما لا يقع تحت الحس فهو في النظرة العلمية غير موجود .

وأن الغيب لا حساب له في الحكم العلمي .

بهذا العقل العلمي المادي البحت بدأت رحلتي في عالم العقيدة وبالرغم من هذه الأرضية المادية وهذا الانطلاق من المحسوسات الذي ينكر كل ما هو غيب فاني لم أستطيع أن أنفي وأستبعد القوة الإلهية .

كان العلم يقدم إلي صورة عن الكون بالغة الأحكام والانضباط .. كل شيء من ورقة الشجر إلى جناح الفراشة إلى ذرة الرمل فيها تناسق ونظام جميل .

الكون كله مبني وفق هندسة وقوانين دقيقة .

وكل شيء يتحرك بحساب من الذرة المتناهية في الصغر إلى الفلك العظيم إلى الشمس وكواكبها إلى المجرة الهائلة التي تحوي أكثر من ألف مليون شمس .. إلى السماء المترامية التي يقول لنا الفلك إن فيها أكثر من ألف مليون مجرة .

كل هذا الوجود اللامتناهي من أصغر ألكترون إلى أعظم جرم سماوي كنت أراه أشبه بمعزوفة متناسقة الأنغام مضبوطة التوزيع كل حركة فيها بمقدار .. أشبه بالبدن المتكامل الذي فيه روح . كان العلم

يمدني بوسيلة أتصور بها الله بطريقة مادية .

وفي هذه المرحلة تصورت أن الله هو الطاقة الباطنة في الكون التي تنظمه في منظومات جميلة من أحياء وجمادات وأراضي وسماوات .
هو الحركة التي كشفها العلم في الذرة وفي البروتوبلازم وفي الأفلاك ..
هو الحيوية الخالقة الباطنة في كل شيء .. أو بعبارة القديس توماس .
الفعل الخالص الذي ظل يتحول في الميكروب حتى أصبح إنساناً وما زال يتحول .. وسيظل يتحول إلى ما لا نهاية .

والوجود كان في تصوري لا محدوداً لا نهائياً .. إذ لا يمكن أن يحد الوجود إلا العدم . والعدم معدوم .. ومن هنا يلزم منطقياً أن يكون الوجود غير محدود ولا نهائي ..

ولا يصح أن نسأل .. من الذي خلق الكون . إذ أن السؤال يستتبع أن الكون كان معدوماً في البداية ثم وجد .. وكيف يكون لمعدوم كيان .

إن العدم معدوم في الزمان والمكان وساقط في حساب الكلام ولا يصح القول بأنه كان .

وبهذا جعلت من الوجود حدثاً قديماً أبدياً أزلياً ممتداً في الزمان لا حدود له ولا نهاية .

وأصبح الله في هذه النظرة هو الكل ونحن تجلياته .

الله هو الوجود .. والعدم قبله معدوم .

هو الوجود المادي الممتد أزلاً وأبداً بلا بدء وبلا نهاية .

وهكذا أقمت لنفسي نظرية تكتفي بالموجود . وترى أن الله هو

الوجود .. دون حاجة إلى افتراض الغيب والمغيبات .. ودون حاجة إلى التماس اللامنظور .

وبذلك وقعت في أسر فكرة وحدة الوجود الهندية وفلسفة سبينوزا .. وفكرة برجسون عن الطاقة الباطنة الخلاقة وكلها فلسفات تبدأ من الأرض .. من الحواس الخمس .. ولا تعترف بالمغيبات .

ووحدة الوجود الهندية تمضي إلى أكثر من ذلك فتلغى التنائية بين المخلوق والخالق . فكل المخلوقات في نظرها هي تجليات الخالق .

وفي سفر اليوبانيشاد صلاة هندية قديمة تشرح هذا المعنى في أبيات رقيقة من الشعر .

إن الإله براهما الذي يسكن قلب العالم يتحدث في همس قائلاً :

إذا ظن القاتل أنه قاتل
والمقتول أنه قتيل .
فليسا يدريان ما خفى من أساليبي
حيث أكون الصدر لمن يموت
والسلاح لمن يقتل
والجناح لمن يطير
وحيث أكون لمن يشك في وجودي
كل شيء حتى الشك نفسه
وحيث أكون أنا الواحد
وأنا الأشياء

إنه إله يشبه النور الأبيض .. واحد .. وبسيط .. ولكنه يحتوي في داخله على ألوان الطيف السبعة .

وعشت سنوات في هذا الضباب الهندي وهذه الماريجوانا الصوفية ومارست اليوجا وقرأتها في أصولها وتلقيت تعاليمها على أيدي أساتذة هنود . وسيطرت علي فكرة التناسخ مدة طويلة وظهرت في روايات لي مثل العنكبوت والخروج من التابوت .

ثم بدأت أفيق على حالة من عدم الرضى وعدم الاقتناع .

واعترفت بيني وبين نفسي أن هذه الفكرة عن الله فيها الكثير من الخلط .

ومرة أخرى كان العلم هو دليلي ومنقذي ومرشدي .

عكوفي على العلم وعلى الشريحة الحية تحت الميكروسكوب قال لي شيئاً آخر .

إن العلم الحق لم يكن أبداً مناقضاً للدين بل انه دال عليه مؤكد لمعناه .

وإنما نصف العلم هو الذي يوقع العقل في الشبهة والشك .. خاصة إذا كان ذلك العقل مزهواً بنفسه معتداً بعقلانيته .. وخاصة إذا دارت المعركة في عصر يتصور فيه العقل انه كل شيء .. وإذا حاصرت الانسان شواهد حضارة مادية صارخة تزأر فيها الطائرات وسفن الفضاء والأقمار الصناعية . هاتفة كل لحظة .

أنا المادة . . أنا كل شيء . . ! ! !

لماذا أسلم ؟

قد أكون غير مسلم . ولكنني مضطر إلى القول بأن الإسلام وحده هو الدين الذي يجد الإنسان فيه روحه وأشواقه .. ومستقبله ...

جوستاف لوبون

في النصف الأول من هذا القرن ، وفي الثلاثينيات منه على وجه التحديد ، كانت تصدر عن جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف مجلة أكاديمية علمية تسمى « نور الإسلام » وكان يشترك في تحريرها نخبة ممتازة من العلماء المتخصصين في شتى فروع الثقافة الإسلامية والضالعين في حكمة الفقه والتشريع ، كانت هذه المجلة رائجة ولا تكاد تخلو قرية في مصر كلها من عدد من المشتركين الذين تصلهم هذه المجلة بالبريد أو مع المسافرين ..

كنت في هذه المرحلة حدثاً صغيراً في مدرسة القرية وكنت أرى هذه المجلة في أيدي الكثيرين من طلبة العلم ومعلمي المدرسة .. وأذكر ذات يوم أن والدي رحمه الله حضر إلى البيت وفي يده مجموعة من هذه المجلة ثم تركها فوق مكتب صغير للرجوع إليها عند الحاجة ..

أمسكت بعدد منها وبدأت أقرأ قصة لعالم نمساوي متخصص في « البكتريا » كان هذا العالم النمساوي قد حضر إلى القاهرة ومعه ابنته للعمل في مصر ، وذات يوم قرأ في كتاب « حديثاً » عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول فيه : إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فاغسلوه سبع مرات إحداهن بالتراب .. وتوقف العالم طويلاً أمام هذا الحديث وبدأ يتساءل ـ الأمر بالغسل سبع مرات واجب وضروري . لكن لماذا يغسل مرة بالتراب .. ألا يكفي الماء وحده في هذه العملية ؟

وأحضر الرجل إناء وترك كلبه يلغ فيه وقتاً طويلاً ثم غسله بالماء مرات عديدة وفي النهاية أخذ الإناء إلى مختبره وبدأ يجري فحوصه .. لقد فوجىء بملايين الملايين من الميكروبات العالقة بالاناء بعد غسله ، إن الماء لم يكن كافياً لتطهير الإناء من الميكروبات العالقة به .. وأعاد التجربة مرة ثانية مستعملاً التراب في تطهيره ودخل إلى معمله ثانية وكانت الدهشة كبيرة حين فوجىء باختفاء الميكروبات من جوانب الإناء كله ..

وعاد يتساءل ...

من أخبر محمداً بهذا ؟ إن اكتشاف الميكروب أمر حديث جداً . وبالتأكيد فإن بين عصر « محمد » وعصر « باستور » قروناً طويلة وعديدة ؟ ثم قصة .. التراب .. إنها قصة أغرب وأعجب فإذا كان قد اكتشف أن في التراب مادة مطهرة فذلك أمر متأخر جداً . فمن أخبر محمداً بهذه الحقيقة ؟ إن في الأمر سراً عجيباً ولكن من أطلع محمداً على هذا السر ؟ انه الله .. إذن فمحمد رسول من الله حقاً .. وأسلم الرجل وأسلمت معه ابنته ..

يقول الدكتور عبد العزيز عزام ..

تعرفت أثناء تجوالي في طوكيو بصاحب مصنع صغير للحديد ، وبينما نحن في طريقنا لزيارة مصنعه تلبية لدعوته مررنا بساحة كبيرة يقع في أحد جوانبها خليج مملوء بالماء من جهة قصر الامبراطور الذي يظهر قليل منه خلف أشجار كثيفة وعالية وسط حديقة مترامية الأطراف وعلى مقربة من حافة هذا الخليج وقف في اتجاه القصر عدد من الرجال والنساء بزيهم الوطني الشبيه بالقفطان ويسمونه (كيمونو) ، والنساء يحملن فوق ظهورهن أولادهن مشدودين إلى أكتافهن برباط ، وقد جاءوا جميعاً قاصدين الحج إلى ساحة الامبراطور ، وترى البعض منهن يصفقن بأيديهن ويترنمن بأناشيد والرجال يضربون بعصي قصيرة على الدفوف نقراً منتظماً ويدعون دعاء غير مفهوم أهو دعاء للامبراطور أم طلب منه .

وفي اليابان لا يزال من يعتقد في الامبراطور أنه (أبو اليابان) والكثيرون منهم يعتنقون البوذية .. وأثناء سيرنا لفت صاحبي نظري إلى مكان غريب ، إلى مكان تحرق فيه جثث الموتى.. وعلمت أن الشعب كله يحرق جثث موتاه عدا البيت المالك[1] .

كان للفرن منظر رهيب ، وقال صاحبي أن درجة حرارته تبلغ الألف درجة وتخرج الجثث منه رماداً يوضع في أوعية من الخزف أو الصيني تذكاراً ... ويا له من تذكار ... نعم كل ما يبقى من الانسان هو شيء يشبه مادة السماد مكون من أملاح فسفاتية وكربونية ونتراتية من

---

(١) من كتاب في الإسلام والعلم والحياة .

المواد التي تستخدم في تغذية النبات وتسميد الأرض ، هذا المصير هو لوجود الإنسان وجهاده المرير في هذه الحياة . فهل هذا الجسم هو ثوب يخلعه ليلبس ثوب الحياة الأخرى أم ماذا ؟

ومن غريب الصدف أو توافق الخواطر أن يسألني صاحبي في هذه الآونة : هل تعتقدون في بعث الموتى ؟ فقلت : نعم . وهل تكون نهاية الحياة هكذا عبثاً أو هباء ورماداً وقد نفى القرآن ذلك . (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) . .

فضحك الصاحب واسترسل ضحكه ثم استدرك لحسن أدبه فاعتذر وقال : لا تؤاخذني ، فأني استبعد أن يكون ذلك البعث لا سيما أن هذه الأجسام ستتحول رماداً يشبه السماد ثم يأتي يوم يتغذى به النبات الذي يأكله الحيوان ومنهما يتغذى الإنسان فتتداخل الأجسام بعضها في بعض مما يجعل أمر فصلها مستحيلاً وبالتالي يكون البعث أكثر استحالة . .

فقلت له : انك لتقول ما قاله غيرك من قبل لمحمد صلى الله عليه وسلم .

(أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات . هيهات لما توعدون)

وقلت له ان الأمر هين لا كما تظن وإذا انتهينا من الطواف بمصنعك فسأنبئك برأي في ذلك ولعله يقنعك . ولما انتهينا من زيارة المصنع ولم يستغرق منا وقتاً طويلاً . وكنت قد شاهدت قبله في جزيرة (كيوشو)

في جنوب اليابان مصنعاً للحديد والصلب يغطي مساحة ٤٥٠ فداناً ويعد أكبر مصانع الشرق الأقصى للفولاذ ويسمى (ياواتا) للصلب . وللوصول إليه طريق مبني تحت ماء البحر تسير فيه السيارات . فاتخذنا هذا الطريق عند زيارته ...

ثم عدنا بعد هذه الزيارة إلى الفندق ويسمى فندق طوكيو وهو على الطراز الغربي وبه صالونان كبيران أحدهما يسمى بالصالون الذهبي والآخر بالصالون الفضي نسبة للون الفراش . وعندما هممنا بالدخول في أحدهما وجدناه محجوزاً لالقاء محاضرة في المسيحية وفوق كل كرسي نسخة من الانجيل .

هنالك ذكرني صاحبي بالموضوع وسألني عن البعث فأخذت أشرح له ممهداً للشرح بمقدمه :

فقلت له اننا معشر الكيماويين لا نهتم بمظاهر المادة اهتمامنا بحقيقة تركيبها فلا بد أن نعرف العناصر المؤلفة للمادة وعدد الذرات من هذه العناصر وطريقة اتصال هذه الذرات بعضها ببعض فلا يكفينا مثلاً أن نعرف أيضاً أن الماء هو سائل لا لون له ولا طعم ويغلي في درجة مائة بل لا بد أن نعرف أيضاً أن الماء مكون من عنصرين أحدهما الاكسجين والآخر الايدروجين وأن عدد ذرات الأول واحد وعدد ذرات الثاني اثنان ثم أن ذرة الاكسجين متصلة بذرتي الأيدروجين ، فأكثر ما يهم الكيماوي هو هذا (التصميم الذري) على غرار التصميم الهندسي وهو الذي يبين عدد الذرات التي تتركب منها المادة وكيفية اتصال هذه الذرات بعضها ببعض .

أما عن العناصر فهي منتشرة في كل مكان وهي التي تتحلل إلى ذرات وأما الذرات نفسها فلا تتغير ولا تتبدل وهي مصنوعة أزلاً وتستمر كذلك .

وأي مادة في الوجود هي عبارة عن ذرات متجمعة وإذا تحللت صارت ذرات متفككة والانفجار يفكك الذرات ويفرقها بعضها عن البعض والذرات لا تفنى ولا تتجدد والكون كلة يتكون من عدد محدود من الذرات المختلفة فمن ثلاث ذرات مختلفة مثلاً يتكون عالم لا حصر له من المواد . والمواد هي عبارة عن أشكال مختلفة لأوضاع الذرات المحدودة العدد .

وتقريباً للذهن نقول : أن الذرات بالنسبة للأجسام هي بمثابة اللبنات (أو الحجارة) بالنسبة للبيت فمن صنف الحجارة الواحد تعمل آلاف الأشكال من البيوت حسب التصميم الهندسي .

والتصميم الذري بالنسبة للكيماوي هو المهم لبناء الجسم المعين . لأن لكل مادة تصمياً ذرياً معيناً . وزيادة في الإيضاح نقول أن مادة حامض النتريك مثلاً تتكون من الاكسجين والنتروجين والايدروجين ويمكن الحصول على الحامض من ملح شيلي المستخرج من مناجم في جنوب أمريكا كما يمكن الحصول عليه بذاته وصفاته من الجو (بتثبيت أزوت الهواء) أي إن مصدر الذرات ليس له أهمية انما المهم هو التصميم الذري .

والأساس هو معرفة التصميم الذري لحامض النتريك أما الذرات

فسواء كان أصلها من (ملح شيلي) أو من الهواء فلا يغير ذلك شيئاً .
ولأوضح الموضوع بمثل آخر أقول أن الأطفال يستخدمون للهو مكعبات خشبية ذات أسطح مرسوم عليها صور مختلفة ويستطيعون أن يبنوا بها أشكالاً مختلفة من البيوت تتفق وما معهم من الرسومات .

ويصح للطفل أن يبني بيتاً بشكل معين ثم يهدمه عشرات المرات ويعيد بناءه كما كان طالما أن أمامه التصميم (الرسم) الذي يحاكيه والقطع الخشبية الثابتة . فالذرات كقطع الخشب ثابتة والذي يتغير هو الرسم وانهدام البيت لا يفني قطع الخشب وكذلك تحلل الأجسام لا يفني ذراتها .

وبدأ صاحبي يتمتم معيداً ما قاله آنفاً ثم عقب عليه قائلاً ولكن فاتنا شيء . فقلت وما هو ؟ قال أن الأجسام لا تتحرك بغير روح . فما هي هذه الروح وما هو هذا السر الذي في الحَب .. فقلت له أرأيت هذا التراب الذي يتخلف من جثث الموتى لو زرعنا فيه أو في مثله من التربة حبة زرع أو نواة ورويناها بالماء فاننا نشاهد بعد وقت أن النواة تنشق فتخرج منها شعيرات تتدلى إلى باطن الأرض وأخرى تصعد إلى جو السماء ثم يقوى الساق وتنتشر الأغصان والأوراق ثم تزدهر ويأتي الثمر . وقد يبلغ ثمر النخلة الواحدة مئات الكيلوجرامات ثم يفرخ بجوارها عدد من الأفراخ وهذه تنتقل وتزرع وتنبت نخلاً أخر وهكذا حتى تصير مزرعة نخيل ، كل هذا مصدره نواة واحدة لا تزن غير بضعة جرامات فمن أين جاءت تلك الزيادة في الوزن ؟ ... ليس هناك أدنى شك بأن التربة وجوّها هي مصدر هذه الزيادة .

وهذا معناه أن المادة الترابية الجامدة الميتة تتحول أمام أعيننا إلى جسم حي نام يتوالد ويتنفس ويثمر . فمن هو هذا الذي يغير طبيعة الأشياء بهذه الكيفية المشاهدة ؟

وإذا كان النبات قادراً على أن يستفيد من التربة ويستمد منها غذاءه مباشرة وتتحول التربة إلى جسم حي . فإن الإنسان يعجز عن عمل ذلك مباشرة لأنه طفيلي يعيش على نتاج الآخرين من حيوان ونبات ويأخذ طعامه منهما وعلى ذلك يكون الإنسان هو أيضاً من التراب الذي تحول عن طريق النبات ثم الحيوان إلى طعام الإنسان الملائم له . وهكذا تتحول أيضاً التربة الجامدة الميتة إلى طعام يتكون منه الإنسان الحي العاقل المدرك السميع البصر .

وإذا هلك الإنسان أو الحيوان أو النبات رجع إلى تراب أو إلى ما يسميه الكيماوي مواد غير عضوية من أملاح كالفوسفات والنترات والكربونات وغاز ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء وهي المواد التي منها تتكون التربة (كما بدأكم تعودون)

فمن هذه الطبيعة الجامدة الميتة تخرج جميع الأشكال والألوان من نبات وحيوان والبذور توضع في التربة وتروى بماء واحد فيخرج منه نبات مختلف كل حسب بذرته فبذرة العدس لا تخرج فولاً وبذرة الفول لا تخرج عدساً وبذرة القمح لا تنتج شعيراً ولا بذرة الشعير تنتج قمحاً ..

فمن هوذا الذي علمها أن تختار بكل هذه الدقة الذرات اللازمة

وتجمعها وتكون منها اللون الأحمر أو الأخضر أو الأصفر والرائحة الزكية أو النفاذة أو الكريهة والطعم الحلو أو المر أو الحامض ؟ .

حقاً من العجب أن يحدث ذلك ونمر به غافلين عما فيه من دلائل على القدرة والدقة والعقل الذي يجعل من مصدر واحد تلك الأصناف التي لا حصر لها وتختلف كل الاختلافات في ألوانها ومذاقها وروائحها ..

وإذا رجعنا إلى بذرة الحيوان نجدها هي الأخرى يخرج منها نفس الشيء ، فمن بذرة العصفور الكروان الأصفر اللون المغرد لا يخرج إلا عصفور أصفر مغرد ، كما أن من بذرة الغراب الأسود الناعق لا يخرج إلا الغراب الأسود الناعق .!!

فمن الذي وضع في كل بذرة ونطفة هذا الاختصاص وهذه القدرة المميزة العاقلة المدبرة الصانعة التي تصنع كل شيء بميزان دقيق وبريشة الفنان التي تنسق الألوان وتربط كل شيء بالآخر حتى لا يتعارض لحظة واحدة عمل عضو مع عضو أو حركة جزء مع الآخر .

إن هذا كله ليدل على قدرة وحكمة وتصوير وتخطيط وعقل ينبثق من البذرة . فمن أوجد في هذه النطف هذه القدرة على التنظيم والتخطيط البعيد الأمد والقدرة على التصوير بحكمة أليس في ذلك وحده دليل كاف على قدرة فوق الوصف نسميها (الخالق) ...؟

قلت هذا ولاحظت أن صاحبي لا يتكلم فخشيت أن يكون قد مل

الحديث أو عنده ما يشغله فبادرته بطلب الاستئذان منه للراحة واستودعته الله .

وفي اليوم التالي جاءني على غير وعد سابق ودق الباب علي ، فقلت في نفسي عند رؤيته عسى أن يكون خيراً . فقال : جئتك بنبأ عظيم ، فقلت وماذا هو ؟ قال : أسلمت .

وأغفت عيناي لحظة وأنا أردد هذه الآية الكريمة :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حَرَجاً كأنما يصَّعَّد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

صدق الله العظيم . .

وأخيرا ... كيف أرى الله .. ؟

إنكم قد تستطيعون أن تنتزعوا جلدي عن جسدي . ولكنكم لن تستطيعوا أن تنتزعوا من عقلي إيماني بالله .. أستغفر الله . فاني لا أومن بالله فقط .. بل أراه ...

فابر

في مقابلة بين الأستاذ أحمد حسن الباقوري ومندوب جريدة برافدا السوفيتية سأل مندوب الجريدة الاستاذ الباقوري هذا السؤال .

أين الله ؟

فقال الشيخ الباقوري : ليس له مكان ...

فقال المراسل : وكيف يؤمن الناس بشيء ليس له مكان، ولا تناله حاسة من الحواس . فهو لا يرى ولا يسمع ولا يشم ولا يلمس ولا يداق ؟
فقال الشيخ الباقوري . إن الجواب على سؤالك يحتاج إلى سؤال .

قال المراسل : تفضل ...
فقال الاستاذ الباقوري موجهاً كلامه إلى المراسل :

هل تؤمن بالجاذبية بين الكواكب ..؟

فقال المراسل : نعم . قانون طبيعي لا شك فيه وإلا انهار الكون كله بسمائه وأرضه .

فقال الشيخ الباقوري : تؤمن بالجاذبية هذا الإيمان كله بينما أنت لم ترها

أو تشمها أو تذقها أو تبصرها أو تلمسها ... ؟ !

إن جوابي عن سؤالك هو نفس جوابك عن سؤالي فلماذا تؤمن بهذا وتكفر بذاك ؟

يقول الاستاذ توفيق الحكيم في إحدى قصصه .

كان في سالف العصر والأوان رجل طيب السريرة صافي الضمير ، رزقه الله طفلاً ذكي الفؤاد ذلق اللسان .. فكانت أمتع لحظاته ساعة يجلس فيها إلى طفله يتحادثان كأنهما صديقان . . فيلحظ كأن فارق السن وفاصل الزمن يرتفع من بينهما كستارة وهمية من حرير فإذا هما متفقان متفاهمان لهما عين العلم وعين الجهل بحقائق الوجود وجواهر الأشياء ...

نظر الرجل يوماً إلى طفله وقال :

ـ شكراً لله ! ... أنت لي نعمة من الله ! ...
ـ فقال الطفل : إنك يا أبت تتحدث كثيراً عن الله ... أرني الله ...
ـ ماذا تقول يا بني ؟ ! ...

لفظها الرجل فاغر الفم ، ذاهل الفكر ، فهذا طلب من الطفل غريب لا يدري بم يجيب عنه ... وأطرق ملياً ... ثم التفت إلى ابنه مردداً كالمخاطب نفسه :

ـ تريد أن أريك الله ؟ ...
ـ نعم ... أرني الله ! ...
ـ كيف أريك ما لم أره أنا نفسي ؟ ! ...

ـ ولماذا يا أبت لم تره ؟ ...

ـ لأني لم أفكر في ذلك قبل الآن ...

ـ وإذا طلبت إليك أن تذهب لتراه ... ثم تريني إياه ؟ ...

ـ سأفعل يا بني ... سأفعل ...

ونهض الرجل ... ومضى لوقته وجعل يطوف بالمدينة يسأل الناس عن بغيته ، فسخروا منه ، فهم مشغولون عن الله ومشاهدته بأعمالهم الدنيوية ... فذهب إلى رجال الدين فحاوروه وجادلوه بنصوص محفوظة وصيغ موضوعة ... فلم يخرج منهم بطائل ... فتركهم يائساً ... ومشى في الطرقات مغموماً يسائل نفسه : أيعود إلى طفله كما ذهب خاوي اليد مما طلب ؟ ... وأخيراً عثر بشيخ قال له :

ـ إذهب إلى طرف المدينة تجد ناسكاً هرماً لا يسأل الله شيئاً إلا استجاب له ... فربما تجد عنده بغيتك » ! ...

فذهب الرجل تواً إلى ذلك الناسك . وقال له :

ـ جئتك في أمر أرجو أن لا تردني عنه خائباً .

فرفع إليه الناسك رأسه قائلاً بصوت عميق لطيف :

ـ اعرض حاجتك ! ...

ـ أريد أيها الناسك أن تريني الله ! ...

فأطرق الناسك وأمسك لحيته البيضاء بيده وقال :

ـ أتعرف معنى ما تقول ؟ ...

ـ نعم ... أريد أن تريني الله ! ...

فقال الناسك بصوته العميق اللطيف :

ـ أيها الرجل ... ! إن الله لا يرى بأدواتنا البصرية ... ولا يدرك بحواسنا الجسدية ... وهل تسبر عمق البحر بالأصبع التي تسبر عمق الكأس ؟ !

ـ وكيف أراه إذن ؟ ! ...

ـ إذا تكشف هو لروحك ...

ـ ومتى يتكشف لروحي ؟ ...

ـ إذا ظفرت بمحبته ...

فسجد الرجل وعفر التراب جبهته وأخذ يد الناسك وتوسل إليه قائلاً :

ـ أيها الناسك الصالح ... سل الله أن يرزقني شيئاً من محبته ... فجذب الناسك يده برفق وقال :

ـ تواضع أيها الرجل واطلب قليل القليل ...

ـ فلأطلب إذن مقدار درهم من محبته ...

ـ يا للطمع ! ... هذا كثير ... كثير ...

ـ ربع درهم إذن ؟ ...

ـ تواضع ... تواضع ...

ـ مثقال ذرة من محبته ...

ـ لا تطيق مثقال ذرة منها ...

ـ نصف ذرة إذن ؟ ...

ـ ربما ...

ورفع الناسك رأسه إلى السماء وقال :

ـ يا رب ... ارزقه نصف ذرة من محبتك ! ...

وقام الرجل وانصرف ... ومرت الأيام ، وإذا بأسرة الرجل وطفله وأصحابه يأتون إلى الناسك ويفضون إليه بأن الرجل لم يعد إلى منزله وأهله منذ تركه ، وأنه اختفى ولا يدري أحد مكانه ... فنهض معهم الناسك قلقاً ، ولبثوا يبحثون عنه زمناً إلى أن صادفوا جماعة من الرعاة قالوا لهم : إن الرجل جن وذهب إلى الجبال ، ودلوهم على مكانه ... فمضوا إليه فوجدوه قائماً على صخرة ... شاخصاً ببصره إلى السماء فسلموا عليه فلم يرد السلام ... فتقدم الناسك إليه قائلاً :

ـ انتبه إلي ... أنا الناسك ... فلم يتحرك الرجل ، فتقدم إليه طفله جزعاً ، وقال بصوته الصغير الحنون : يا أبت ... ألا تعرفني ؟ ... فلم يبد حراكاً ... وصاحت أسرته وذووه من حوله محاولين إيقاظه ولكن الناسك هز رأسه قانطاً وقال لهم :

ـ لا جدوى ! ... كيف يسمع كلام الآدميين من كان في قلبه ذرة من محبة الله ! ؟ ... والله لو قطعتموه بالمنشار لما علم بذلك ! ...

وأخذ الطفل يصيح ويقول :

ـ الذنب ذنبي ... أنا الذي سألته أن يرى الله ! ...

فالتفت إليه الناسك وقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ أرأيت ؟ ... ان نصف ذرة من نور الله تكفي لتحطيم تركيبنا الآدمي وإتلاف جهازنا العقلي[1] ! ...

(١) أرني الله .. توفيق الحكيم .

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ

قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ...

قَالَ لَنْ تَرَانِي ، وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ

فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي

فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا

وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ...

فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ

إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١) .

صَدَقَ اللهُ العَظِيم

---

(١) سورة الأعراف آية ٤٣ .

حَول الطبعَة الأولى

كيف أرى الله وأدعو إليه ؟

لم يكن يخطر ببالي ـ حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ـ أن يحظى بهذا القبول والترحاب من عامة القراء وبخاصة بين الشباب .

لقد قرظه الكثيرون في أقطار عديدة من العالم الإسلامي والعربي ، ودارت حوله مناقشات كثيرة على صفحات الجرائد والتليفزيون .. وكان مرجعاً لكثير من البرامج التي تعالج قضايا الإيمان والفكر .

غير أني أتجاوز هذا كله إلى نقد وجه إليه من مجلة « المجتمع » التي تصدر في الكويت وقد رأيت فيما كتبه الناقد ، وفي ردي على هذا النقد اضافة هامة تساعد المسلم على تفهم ما يدور حوله في هذا العصر ، وفي تجلية موقف الإسلام من كل جديد في دنيا الثقافة والفكر .

أولاً ـ يقول الأستاذ الناقد :

« لم يعجبني ان ينشر الاستفتاء عن المؤمنين بالله في الغرب سواء أكان ذلك الاستفتاء قام به شخص أو صحيفة لعدم انطباق اسم الإيمان عليهم في نظري واعتقادي بصفتي من المسلمين ... »

فهل يريد الأستاذ ان يكون هذا الاستفتاء بين المؤمنين ..؟ ذلك تحصيل حاصل ودوران في حلقة مفرغة لأن المؤمنين ليسوا في حاجة إلى استفتاء يعلنون به إيمانهم بالله ووجوده ..

ان الأمر ببساطة يدور حول قضية محددة .. هذه القضية هي : هل تخلت الحضارة الأوروبية كلية عن الايمان حتى نقلدها في هذا المنحنى الخطر ؟ هل اختفى « الله » من ضمير هذه الحضارة حتى يقلدها التائهون في دنيا العروبة والإسلام من الذين يجترون فتات هذه الحضارة ويشربون من معينها القذر ؟

هذه هي القضية التي يدور حولها الحوار .. وهذا هو السؤال الذي يجيب عنه هذا الاستفتاء ..

القضية إذن ليست في تقويم ايمان هؤلاء وعقيدتهم فذلك أمر لا يحتاج إلى بحث وتغني فيه الإشارة عن الاطالة والشرح .

ان الحكمة ضالة المؤمن كما يقول النبي الكريم ، ولو سلمنا بما يقوله الناقد لما قام للمسلمين أمر ، ولا ارتفع بشأنهم ذكر ، فالحضارة والتقدم والعلم ميراث مشترك بين جميع البشر ، يكمل اللاحق ما بدأه السابق ، والمسلمون في مختلف عصورهم أخذوا وأعطوا وزادوا وأنموا ، فالبناء الإنساني لا يتكامل إلا بتعاون أبنائه ، وترابط أجزائه .

ان الدواء اكتشاف إنساني ، والفكر تراث إنساني وشرب المسلم لدواء صنعه كافر لا يجعل من المسلم كافرا .. والاستفادة من فكر غير المسلم لا يجعل المسلم مرتدا ..

انها لجناية قتل لو رفضنا الدواء ، وجريمة فكر لو رفضنا الحكمة ..!!!

ثانيا – يعترض الأستاذ الناقد على الحوار الذي دار بين الإمام أبي حنيفة وأحد الملحدين لأن هذه القصة وهذا الحوار ـ على فرض صحتهما ـ ينفيان عن الله عز وجل بعض صفاته الثابتة ـ في كتاب الله وسنة رسول الله ـ ولا ينسى ان يلحق بهذا الاعتراض والرفض ما قاله العالم الفيزيائي « اندرو كونواي » حين قال : ان اعتقادي بوجود الله الذي خلق كل شيء والذي يوجد داخل الكون وخارجه .. الخ لأن هذه العبارة كما يقول الأستاذ مخالفة لاعتقاد السلف الصالح . إذ يترتب عليها تجزئة ذات الله ..

ولا أريد ان اناقشه فيما أورد من الحجج والأدلة .. انني رجل ترجف قدماه حين يتعرض لمعنى آية أو حديث .. وأنا في هذه القضية متزمت شديد التزمت .

مسلم ـ باللام المشددة المكسورة ـ غاية التسليم . حتى لا يكون لبس ؟

إلا أنني أحب ان أسأل .. هل يمكن ان تكون عقيدة غالبية المسلمين ـ بل خمسة وتسعين منهم على الأقل ـ مغايرة لما جاء في الكتاب والسنة ..؟

وازيد ايضاحاً .. اننا درسنا في الأزهر ، ودرس غيرنا في جامعات إسلامية أخرى وفي معاهد علمية إسلامية كثيرة . درسنا هذا الذي تنكره علينا . قاله أئمة من شيوخ الإسلام والعلم . وأصبح من المعروف .. من الدين بالضرورة بين عامة الناس . هل يمكن ان يصدر هذا الاعتقاد والتصور من لا شيء ..؟ أليس من الجائز ـ فرضا ـ ان يكون لهؤلاء قاعدة (نقلية) يستندون إليها وينطلقون منها ..؟ وإذا كان علماء اليوم لا يفكرون ولا يقرءون هل يمكن أن يمر ذلك على من خلت بهم القرون من العلماء وأئمة الدين ..؟

فقط أريد أن أعرف ما إذا كانت عقيدة غالبية المسلمين وعلمائهم في الدين عقيدة مغايرة للكتاب والسنة ؟

ألا ترى معي انه كان من الانصاف والعدل ان تشير إلى هذه الحقيقة وان تقول ان رأيك ـ مع التسليم بأنه الحق ـ يقابله رأي آخر لمعظم المسلمين يعتقدون انه حق .. حتى لا ينظر الناس إلينا نظرة خروج وشك ..

ان قصة أبي حنيفة مع الدهري منقولة بكاملها من كتاب لمفكر سعودي اعتز بثقافته وعلمه .. فقد نشر الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار صاحب جريدة عكاظ التي كانت تصدر بمكة المكرمة هذه القصة في سلسلة من المقالات في جملة من الصحف السعودية . ثم جمعها بعد ذلك في كتاب سماه « الإسلام طريقنا إلى الحياة » نشرته المؤسسة العربية للطباعة في جدة سنة ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م وقد أورد هذه القصة بتفاصيلها في صفحة ٢٢٣ ، ٢٢٤ وهو كتاب أرجوك ان تقرأه فان فيه الكثير مما يجب ان يعرفه العالم الواعي المثقف .

وقد ذكر الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في المقدمة ان كل ما في هذا الكتاب يتصل بالإسلام . وهذه الصلة القوية تبيح لي ان أسلكها في

سمط واحد ، وما فيه من مقالات وفصول نشرت في الصحف السعودية ورأيت جمعها في كتاب لتكون سجلاً تاريخياً أو مرآة لصاحبها **تعكس عقيدته واتجاهه وشعوره** .. ويسعدني ان يكون الصدق طابع كل رأي رأيته ، وكلمة كتبتها وحسبي هذا . وشفيعي الاخلاص لديني .

انتهى كلام الأستاذ « عطار » .

وهنا يحق لي أن أسأل . هل يدعي أحد الغيرة على الإسلام أكثر من علماء السعودية ؟

أليسوا هم القوامين على « السلفية » ودعاتها والباذلين من أجلها المال والجهد ؟

هل غاب عن علماء السلف في المملكة ما كتبه الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في الصحف وما جمعه بعد ذلك في كتاب ؟ وإذا حدث تقصير حين النشر في الصحيفة هل استمر هذا التقصير بعد جمع هذه المقالات في كتاب ؟

ان المؤلف يقرر في مقدمة كتابه ان كل ما كتبه **يعكس رأيه وعقيدته** فكيف ترك الأستاذ « عطار » دون مساس بهذا الرأي وهذه العقيدة إذا كان فيهما ما يخالف مذهب السلف .. أو الكتاب والسنة ؟

ثالثاً – يتهمنا الأستاذ بتجريد العقل من الشرف الذي وهبه الله اياه لأننا نقلنا اجابة أحد « العارفين » حين سئل عن الدليل على الله فقال : الله . قيل : فما العقل ؟ قال : عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله . ولا يفوته ان يعلق على هذه الإجابة ساخراً بقوله : لو قال ـ أي المؤلف ـ سئل أحد الجاهلين ... الخ . لأصاب .. كما ان تجريد العقل من القدرة على الدلالة على الخالق يناقض فصلاً كاملاً من فصول الكتاب سماه « صوت العقل .. » .

ولعمري ... كيف توصل الأستاذ إلى هذه النتيجة التي يناقضها فصل كامل من فصول الكتاب كما يقرر هو ذلك .. من هو الذي يستطيع ان

يجرد الإنسان من أخص خصوصياته التي ميزه الله بها على غيره من سائر المخلوقات ، وأناط بها التكاليف والعبادات . وجعلها السبيل والطريق إلى معرفة آيات الله وآثاره في الأرض والسموات ؟ من يجرؤ على هذا ؟ ان العقل كـأداة للتفكير والنظـر والتحقيق والبحث ، نعمة من الله كبرى ولكن الخلاف يا أستاذ هو في استعمال هذا العقل في غير موضعه ... في تجاوزه حدوده . وإلا لو سلمنا لكل « عاقل » بما يدعيه عقله ، لأغلقنا باب الخطأ والصواب ، واختلفت المسميات وضاعت الحقائق ، وانطمست معالم الهداية وصار الباطل حقاً .. والحق باطلا ...

والمؤسف والغريب ان الأستاذ يجزِّئ القول في هذا الموضع الذي نقل منه هذا الكلام . انه « يفصِّل » الكلام حسب أفكاره فيأخذ ما يناسبه ويترك ما لا يعجبه لقد قطف من الشجرة أوراقها وترك ثمارها الطيبة .. هل أسيء الظن ..؟ حاشا لله . ولكن نعود إلى ما جاء في الكتاب ..

لقد سئل أحد العارفين عن الدليل على الله . فقال : الله . قيل : فما العقل ؟ فقال : عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .. ولو ان إنسان هذا العصر أدرك حقيقة نفسه وحدود عقله لاختفت من الوجود همهمات الالحاد والزيغ ، وعاش الناس في طمأنينة بالغة من الهدوء وراحة النفس .

لقد درست ما يسمى بالفلسفة في كلية أصول الدين بالأزهر الشريف وهي كلية تهدف رسالتها إلى تركيز قواعد الإيمان واليقين في النفس . كانت الفلسفة تمثل جانباً كبيراً من مناهج الدراسة في هذه الكلية .. الفلسفة بكل مدارسها ، واتجاهاتها ، وبخاصة الجانب الإلهي منها . .

ما هذا الذي يقوله سقراط وارسطو وأفلاطون .. ماذا يقول نيتشه وديكارت وماذا يدعي الآخرون عن صاحب العظمة والجلال ..؟

أقوال يأخذ بعضها بخناق بعض ، ودعاوى تفتقد حرارة الإيمان وصدق اليقين ، ودليل ينقصه الدليل ليحمل اسم الدليل ..!!

كنت متمرداً على كل هذه الثرثرة واللغو ، ان الله سبحانه فوق كل تصور ووصف . وعقل الإنسان مهما بلغ من المعرفة فهو عقل محدود في عالم محدود . وحين يتجاوز هذا العقل حده يضل ويزيغ فلا يصدر عنه الا الضلال والزيغ ..

انتهى من الكتاب ..

فماذا تفهم أيها القارئ العزيز من هذه العبارات ..؟

هل ترى فيها انكارا للعقل ؟ أم انكاراً لغروره وتجاوزه الحد ؟ هل يقول عاقل في الدنيا بأن عقل أي بشر مهما يكن هذا البشر هو عقل معصوم من الخطأ ؟

يقول الأستاذ ..

« وأما العقل فهو عاجز إذا أراد ان يتعدى حدود مقدرته .. جميل .. ولكنه غير عاجز . عجيب ..!

ويدل على الله إذا سلك الطريق التي رسمها له الوحي . فلو كان عاجزاً لا يدل إلا على عاجز لما كان مناط التكليف .. الخ » .

العقل غير عاجز كما يقول الأستاذ ويدل على الله إذا سلك الطريق التي رسمها له الوحي ..

لكن لم يقل لنا الأستاذ بم يسمي هذا العقل إذا لم يسلك طريق الوحي . وضل عن الطريق ..؟ بم تسمي عقل ماركس وستالين وسارتر وغيرهم من شياطين الأنس ..؟

بم تسمي العقل الذي فتح أبواب جهنم على مدينتي هير وشيما ونجازا كي ، وأغرق العالم في بحور الدمار والخوف والرعب ..؟

بم يسمي هذا العقل (غير العاجز كما تقول) عندما يستعمله صاحبه في الافساد ، ونشر الإلحاد ، واذلال العباد ، وابادة الشعوب التي لا تدين لصاحبه بالطاعة والانقياد ..؟

ألف نعم للعقل الذي يعرف حدوده .. وألف .. لا .. للعقل الضال عن الحكمة من خلقه ووجوده ...

رابعاً – لا يعترف الأستاذ بقانون الجاذبية بين الكواكب والاجرام لأن « الجاذبية نظرية لا يجزم بصحتها » مع تقديره لكتاب « قصة الايمان » الذي فسر امساك الله للسموات والأرض عن المحو والزوال بقانون الجاذبية بين هذه العوالم والأفلاك ..

وأريد أن أسأل الأستاذ ماذا يضير الدين إذا اعترفنا بقانون الجاذبية بين الأفلاك ..؟ ماذا يمس العقيدة في هذه النظرية التي يقول بها العلماء ان الكون كله بظواهره وعوالمه من خلق الله رب العالمين .. السماء من خلق الله ، والأرض من خلق الله ، والكواكب من خلق الله ، والرعد والبرق والمطر من خلق الله ، والشعور والوجدان والتفكير من خلق الله ، والروح والنفس من خلق الله ، والمطر والجاذبية من خلق الله ، والكهرباء من خلق الله ، والاختراع والابتكار والاكتشاف من خلق الله ؟ فاذا عرفنا بالمشاهدة والتجربة ان لهذه المخلوقات ظواهر يمكن تقنينها أو تنظيمها ، أيعتبر ذلك مخالفاً للدين ؟ ماذا يضير المسلم في عقيدته إذا آمن وسلم بوصول الإنسان إلى سطح القمر ، ماذا يناقض الدين في دنيا الكشوف والاختراع والتجارب..؟ « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون .. » .

إن من مظاهر هذا التدبير في الخلق ، وظواهر النعمة على البشر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم فكلها مما يلبي حاجة الإنسان في الأرض وهي لم تخلق له ولكنها مسخرة لمنفعته .. وهذا من حكمة التدبير وتناسق النواميس في الكون كله يدركه أصحاب العقول التي تتدبر وتعقل وتدرك ما وراء الظواهر من سنن وقوانين « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

* * *

عندما بدأت المحاولات الأولى لانزال أول إنسان على سطح القمر أرسل مسلم من لبنان إلى المرحوم الشيخ شلتوت بهذا السؤال ..

– ما رأي الدين فيما تردده الأنباء من انزال إنسان على سطح القمر ..؟

وأجاب العالم المحقق رحمه الله ..

يا بني .. على علماء الدين ان يسبقوا علماء الفضاء إلى القمر حتى ينظموا حياتهم الدينية هناك ..

انها رحابة الإسلام . وسعة أفقه ، وشموله لكل قضايا الفكر والحضارة والإنسان ...

خامساً – يقول الأستاذ عند تعليقه على فصل « واحة الإيمان » ان المؤلف قد استهل هذا الفصل بحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم « عجبا لأمر المؤمن .. إلى آخر الحديث » وجميل ان يبدأ هذا الفصل بحديث شريف .. الخ . ومع هذه البداية الحسنة نجده قد كتب فيه عن هنري فورد .. وجاك دمبسي . ومارك بلانك . ويصف هؤلاء الأربعة بالأبطال .. الخ

ويتساءل الأستاذ .. أهؤلاء هم المؤمنون الذين عناهم الرسول صلى الله عليه وسلم بحديثه أم انعدمت الأمثلة للأمة الإسلامية أم ماذا ؟ وأحب أن أوضح له ان هؤلاء مشركون .. الخ .

فماذا قال هؤلاء الذين يعترض عليهم الأستاذ ؟

يقول هنري فورد : اني أعتقد ان الله سبحانه قدير على تصريف الأمور وانه تعالى في غير حاجة إلى نصيحة مني . ولهذا أترك له تصريف أموري بحكمته جل شأنه ..

ويقول وليم جيمس : ان أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكر هدوء القاع العميق ولا تقلق أمنه . وكذلك المرء إذا عمق إيمانه خليق ألا تعكر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة .. فالرجل المتدين حقاً عصي على

القلق . محتفظ باتزانه . مستعد دائماً لمواجهة ما عسى ان تأتي به الأيام من صروف ..

ويقول الكسي كاريل في كتابه « الإنسان ذلك المجهول .. » :

ان الإيمان بالله يمنح الإنسان يقيناً جباراً . حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب . فهو يجاهد في سبيل الله من أجل هدف سام أعلى . ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة ..

هل في هذا الكلام عيب يا حضرات السادة ..؟

ان الكتاب وضع أصلاً ليعالج مشكلة خطيرة في المجتمع الإسلامي .. مشكلة الشباب المبهور بكل ما جاء به الغرب من بدع وتقاليد وضلالة . الشباب الذي يباهي بفسوقه وتمرده وعصيانه لأن هذا الفسوق والعصيان والتمرد هو « بدعة » الحياة في الغرب هي في نظره « ثوب » هذه الحضارة .. وعنوان التقدم والتطور والحرية .

فاذا جئنا نحن لهذا الشباب بأقوال هؤلاء القادة من رجال الفكر في الغرب إذا قال هؤلاء ان الدين والعقيدة الدينية والخضوع لله والتسليم له في كل أمر من أمورنا هو النجاة والسعادة ، وفيه الهدوء وراحة القلب إذا جئنا بهذا وكتبناه يعتبر تمرداً على التراث والقيم وتاريخ السلف ..

انني أخاطب بهذا الكتاب من يعرف المسجد ، ومن لا يعرف طريقه ، ومن لا يعترف بوجوده .. هؤلاء هم الذين أعنيهم وأدعوهم .. انني أدعو هؤلاء الذين جعلوا ثقافة الغرب وفلسفة الغرب . ومذاهب الغرب دينا وعقيدة . فاذا كشفنا لهم زيف هذه الثقافة ، وزيف هذه الفلسفة وأتينا برجال من الغرب يقررون هذه الحقيقة ، ويشهدون لهذه القضية يكون ذلك خروجاً على المأثور والعرف ..؟

وقصة السير « بودلي » .. لقد تجاهل في هذه القصة مضمونها العقيدي الإسلامي فالرجل معجب بروح الإيمان وتسليم الأمر لله من جانب هذا

المسلم البدوي . هذا الذي يواجه الأحداث والصعاب برضا ويقين وراحة نفس استمدها من دينه وعقيدته فلا يأبه بمشكلات ، ولا يجزع لمصيبة ، ولا يسخط جزعاً من قضاء الله وقدره . فيتأثر الرجل بهذه الروح ويعترف بأنها حق .. لم يسخر الرجل منهم بل أعجب بصنيعهم وحسن تصرفهم .. ويزيد في اعجابه وتقديره فيؤلف كتابا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأطمئن الأستاذ بأنني قرأت هذا الكتاب حين صدوره منذ ثلاثين عاماً . قرأته وأنا طالب صغير في ساحة الأزهر . قد تكون للكتاب بعض المعايب وهي معايب مردها إلى جهله باللغة العربية والسيرة النبوية .. ولكن رجلا غير مسلم يكتب كتابا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويشيد بأخلاقه وسيرته ، ويعترف ــ وان ظاهرا ــ برسالته ، الا يعتبر ذلك عملاً مشكورا من جانب أي مسلم ؟

انني اخالف الأستاذ في كل ذلك .. انني أدعو الناس كلهم إلى الإسلام أدعوهم إلى دراسته . وأدعوهم إلى فهمه . فاذا أخطأوا فان مهمتي ومهمة كل مسلم هي التعقيب والتصحيح ..

سادساً – في فصل « تجارب واعترافات » الذي ضمنته قصة الدكتور مصطفى محمود ..

أرى من المستحسن ان أعيد هنا ما كتبته هناك حول هذا الموضوع . قلت : انه كانت لي بعض الاعتراضات على تفسيره للآيات إلا أنني اعتبرت عودته إلى حظيرة الايمان كسباً يستحق التأييد والاعجاب . لم أكن على رأي الذين هاجموه ــ مع التسليم لهم ببعض ما قالوه ــ لأن الرجل من وجهة النظر العادلة يمر بتجربة جديدة والواجب ان نفسح له صدورنا ثم نقول له بعد ذلك كلمتنا .. هذا هو ما قلته عن الدكتور مصطفى محمود .. ويحق لي الآن ان اتساءل ..

ماذا يعيب هذا الكلام في نظر الأستاذ ؟

ماذا يجب ان نقوله لرجل قضى أكثر من نصف عمره يهاجم الدين والعقيدة ، ويدعو إلى الالحاد والزندقة ويؤثر في قطاع كبير من الشباب والقراء الذين يأخذون كلامه قضية مسلمة . هذا الرجل يعود إلى الله ، ويهب قلمه وعقله وفكره لهدم الالحاد ، وترسيخ معنى الإيمان والجد والاجتهاد في الدعوة إلى الله .. ماذا نقول لمثل هذا الرجل حين يرجع ..؟

وهبه أخطأ في رأي أو في تفسير آية أو حكم ما هو الأسلوب الذي يمكن ان نعالج به هذا الخطأ ونوجهه إلى الصواب ..؟

ما هو الأسلوب الأمثل .. للتصحيح والتوجيه والدعوة إلى الله ..؟

هل نهاجمه بهذه القسوة والضراوة كما فعل البعض ؟ هل نتهمه بالتزييف والتحريف وسوء النية والقصد ؟ هل نعقد له « محكمة تفتيش » ونحاكمه بتهمة الهرطقة والتجديف في الدين ..؟

الطريق الأمثل هو ان نأخذ أنفسنا بأدب الإسلام ونبي الإسلام .. ان نفسح له صدورنا ثم نقول له كلمتنا . لقد ذهب رجل إلى النبي وعرض عليه ان يسلم بشرط ان يسمح له النبي بممارسة الفاحشة مع النساء لأنه لا يطيق على فراقهن .. لقد هاج بعض الصحابة على الرجل وهموا بقتله . فيدنيه الرسول الكريم من نفسه ويطلب من الصحابة ان يخلوا بينه وبينه ثم يسأله النبي سؤال الحكيم المرشد ، هل ترضاه لأمك ، فيقول الرجل : لا . ويستمر النبي في سؤال الرجل . أترضاه لأختك ؟ أترضاه لابنتك ؟ أترضاه لزوجتك ؟ وفي كل ذلك يقول الرجل : لا ..

فيقول المؤدب العظيم صلى الله عليه وسلم :

وهكذا لا يرضاه الناس لأمهاتهم . ولا لبناتهم ولا لزوجاتهم ولا لأخواتهم فيقوم الرجل من عند النبي وليس شيء أبغض إلى قلبه من اجتراح الفاحشة ..

هذا هو أسلوب الدعوة والدعاة ..

يقول قدوة العارفين الإمام أبو حامد الغزالي .. يقول عند تفسير قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » ان الله تعالى يأمرنا ان ندعو المخالفين بالأسلوب (الأحسن) فلو دعونا الناس بالأسلوب (الخشن) فقط .. نكون قد خالفنا أصلاً من أصول الإسلام ..

ويقول الأستاذ معقباً على موقفي هذا من الدكتور مصطفى وكتابه .

ما هكذا تورد يا سعد الابل ! ! الا تقول له كلمتك الآن ـ ان كان عندك (عندي أنا) كلمة نافعة ـ حتى تعينه على فهم التجربة الجديدة قبل ان يتركها كما ترك التجارب السابقة ويترك معها أخطاءه تلصق بالإسلام على أساس ان صاحبها يمر بتجربة ..

ثم يقول .. بعد ذكر الآية الكريمة « اليوم اكملت لكم دينكم » إلى آخر الآية .. الإسلام دين متكامل وليس حقلاً للتجارب ..

انه يطلب منا ان نقول له كلمة نافعة وهو في بداية عهده « بالتجربة » حتى لا يتركها كما فعل مع غيرها من التجارب .. ثم يعود بعد ذلك فيرفض ما قرره سابقاً لأن الإسلام ليس حقلاً للتجارب .

ان القضية كلها تدور حول هذا السؤال ..

كيف تدعو الناس إلى الله ؟ وأحب أن أطمئنه ، فقد قلت للدكتور كلمتي . قلتها له بنفسي . وقالها له غيري .. ولا يفوتني ان أذكر هذه القصة التي سمعتها بنفسي عندما أصدر الدكتور مصطفى محمود كتاب « الله والإنسان » ذلك الكتاب الذي هاجم فيه العقائد والأديان أرسل إليه « مطران كبير » يدعوه ـ بواسطة احدى الفنانات ـ لزيارته في بيته وحين التقى الدكتور بهذا المطران بدأ ـ أي المطران ـ يحدثه عن كتابه حديث الاعجاب والتقدير .. وأخذ يشجعه على اصدار مثل هذه الدراسات المدعومة بالوثائق وعمق التفكير ..!!!

يقول الدكتور مصطفى : بدأت أسائل نفسي .. ان الكتاب الذي كتبته يهاجم كل دين فكيف يستضيفني رجل دين كبير ويشجعني على مثل هذا العمل الخطير ؟ وعندما هداني الله إلى الحق وأصدرت كتابي عن « القرآن » بعد هذه الرحلة الطويلة في الضياع والشك جاء « الشيوعيون » غاضبين . لقد أرادوا ان يحطموه ولكن كيف ... بفلسفتهم الزائفة وماديتهم الجدلية ؟ لقد كشفها الرجل ومضى في طريق الحق إذن بالسلاح الذي يحمله هو . ولكن كيف ؟ باثارة الحملات ضده . والتشكيك في إيمانه وفكره ..

ولك ان تتصور أيها القارئ لماذا يشجع « المطران » الهجوم على الدين ؟ ولماذا يقف الشيوعيون هذا الموقف الماكر اللئيم .. انه توزيع الأدوار بين الالحاد والصليبية .. لأن هدف الفريقين واحد وهو القضاء على الإسلام والأمة الإسلامية ..

سابعاً – هذه هي خاتمة المطاف في رحلة هذا الهجوم والالتفاف فهو يستنكر هنا « ضمنياً » اجابة الشيخ الباقوري لمراسل برافدا الشيوعي .. ويتهم توفيق الحكيم بالشك المناقض للإيمان حسب اعترافه ــ كما يقول ــ في كتاباته . ويتهم كذلك « توفيق الحكيم » بالهجوم على الدين ورجاله .. انه يصدر أحكاماً خطيرة في قضايا الإيمان والعقيدة ، ويحكم بالحرمان ، أو « الغفران » كما تفعل الكنيسة انه لشيء رهيب ذلك التفكير الذي ينقل الناس من ساحة الإيمان إلى الكفر ببساطة وسهولة ..

ان توفيق الحكيم لا يدعي لنفسه انه من علماء الإسلام المتبحرين في علوم الدين والشريعة . ولا أزعم له هذا الانتساب إلى الصفوة المختارة من أهل الملة .

ولنتابع سويا كلام الأستاذ علنا نعثر سويا على دليل هذه الادانة وحيثيات هذه القضية . يقول الأستاذ : « لقد وقفت عند قوله : فذهب

إلى رجال الدين فحاوروه . وجادلوه . بنصوص محفوظة . وصيغ موضوعة فلم يخرج منهم بطائل » هذا كلام الأستاذ .. فمن هم رجال الدين هؤلاء الذين يجادلون بنصوص محفوظة وصيغ موضوعة ..؟

انه يعني هؤلاء الذين جهلوا روح الدين وحقيقته وسره ، هؤلاء الذين انفصلوا عن منابع الهداية وتمرغوا في حمأة الطمع والشره والانانية . هؤلاء الذين يلبسون للناس مسوح الضأن وقلوبهم أمر من الصبر . هؤلاء الذين يفتون بغير علم ، ولا حجة ولا بينة من كتاب ولا سنة ، هؤلاء الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال لهوى حاكم أو طلب منفعة ، هؤلاء الذين يحلون دماء المسلمين وأئمتهم وجماعاتهم ودعاتهم هؤلاء الذين افتوا بفسوق الإمام أحمد بن حنبل وعرضوه للمحنة .. !

اننا نعرفهم جيداً وليس توفيق الحكيم هو الذي يعرفهم .. اعرف هؤلاء الذين يحلون دمي ودمك قربانا لطاغية .. اننا نعرفهم وهم كثيرون جداً .. ودعني اسكت يا رجل . لقد عافاك الله فاحمد الله على نعمة العافية؟ !

ويقول : «كما وصم ـ أي توفيق الحكيم ـ رجال الدين بالجهل وعدم وجود مستند يسعفهم بالجواب » . إذا كان هؤلاء الذين أشرنا إليهم هم الذين يصفهم بالجهل فأنا أصفهم بأكثر من ذلك .. أما إذا كان يعني العلماء حقاً .. المخلصين حقا .. الداعين إلى الله علما وعملا . وسلوكاً وخلقا ، وشجاعة وصدقا . وتجرداً واخلاصاً . فأنت الذي يتهمهم بالجهل أيها الأستاذ الجليل .

هل تريد دليلا ؟

سئل أحد العارفين عن الدليل على الله . فقال الله . قيل له فما العقل ؟ قال عاجز لا يدل الا على عاجز مثله .

لقد سخرت ما شاءت لك السخرية من هذا العارف فقلت : لو قال : سئل أحد الجاهلين . لأصاب . الخ .

أتدري من هذا العارف الذي وصفته بالجهل ..؟ لن أذكر اسمه . فإجلالي لمثل هذا الرجل يمنعني من التصريح باسمه بعد ان وصفته بالجهل .. غير اني أمضي معك إلى نهاية الشوط فأنت أدركت أو استنتجت ان هذا « العارف » من الصوفية وأدركت أنا واستنتجت ــ وأرجو أن أكون مخطئا ــ انك لا تميل إلى هذه الطائفة . واني أعذرك في ذلك إذا كان تصورك للصوفية صادراً عن هذا الواقع المشين لمن يدعون الانتساب إلى هذه الطائفة . أما الصوفية الحقيقيون الصوفية الذين يلتزمون بكل ما جاء في الكتاب والسنة ، الصوفية الذين يأخذون من النبي الكريم وأصحابه قدوة .. الصوفية الذين نشروا لواء الإسلام في أكثر أقطاره المعروفة ، الصوفية الذين يعتبر هذا « العارف » من أئمتهم وكبار معلميهم فهم ــ علم الله ــ من خيرة عباده المؤمنين عملا وعلما وتجردا واخلاصا . وبطولة وجهادا وزهدا وورعا .. ان أكثر زعماء الاصلاح الذين عرفهم العالم الإسلامي في المائتي سنة الأخيرة كانوا صوفية ، الذين حملوا راية الجهاد ضد الغزو الصليبي والاستعمار الأوربي كانوا صوفية .. الأمير المجاهد عبد الكريم الخطابي كان صوفيا . السنوسي الكبير كان صوفيا . ومهدي السودان كان صوفيا . محمد عبده كان صوفيا . محمد اقبال رائد فكرة انشاء باكستان كان صوفيا . الشيخ عبد الحميد بن باديس كان صوفيا .. الذين نشروا الإسلام في شرق وغرب افريقيا كانوا من الصوفية . الذين حملوا الإسلام إلى اندونيسيا وماليزيا كانوا صوفية . جزر المالديف دخلت كلها في الإسلام على يد الشيخ «أبو البركات» الذي كان صوفيا .. ماذا أقول وماذا أعدد .. ؟

ثم هذه القصة .. قصة الرجل وابنه انها قصة رمزية تهدف إلى معنى أكبر من عباراتها وألفاظها . ان حب الله لا يمكن ان يكون جنونا . ولكن ألا ترى معي ان من الحب ما يقتل ؟ انها دعاية أرجو ان تقبلها ..؟ ولو ربطت بين هذه القصة وختامها في الصفحة الأخيرة . لو ربطت بين القصة

وما جاء في سؤال موسى لربه :

« .. رب أرني أنظر إليك . قال لن تراني . ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا .. وخر موسى صعقا . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » .

لو ربطت بين المعنى في القصة وهذه الصورة القرآنية الجياشة المعبرة . لوصلنا إلى الحقيقة وكفانا الله وإياك مؤنة هذه المشقة ..

عبد الودود شلبي

القاهرة غرة المحرم ١٣٩٧ هـ

٢ يناير ١٩٧٧ م

المراجع

الله يتجلى في عصر العلم	ترجمة الدكتور الدمرداش سرحان
الله	الاستاذ عباس العقاد
الله والإنسان	الاستاذ عبد الكريم الخطيب
الله	الدكتور مصطفى محمود
رحلتي من الشك إلى الإيمان	الدكتور مصطفى محمود
الإسلام يتحدى	المفكر الإسلامي وحيد الدين خان
الدين في مواجهة العلم	المفكر الإسلامي وحيد الدين خان
جدد حياتك	الاستاذ محمد الغزالي
العقائد الإسلامية	الاستاذ السيد سابق
العلم يدعو إلى الإيمان	ترجمة محمود صالح الفلكي
دع القلق وابدأ بالحياة .	ترجمة عبد المنعم الزيادي
عقائد المفكرين	الاستاذ عباس العقاد
قصة الإيمان	الأستاذ نديم الجسر
في الإسلام والعلم	دكتور عبد العزيز عزام

المحتويات

صفحة

مطابع الشروق

بيروت : ص.ب : ٦٤ ٨ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN